بسم الله الرحمن الرحيم

فلا تظالموا

إنَّ الحَمْدَ للَّهِ – تَعَالىٰ – نَحْمَدُهُ ، و نَسْتَعِينُ بِهِ ونَسْتَغْفِرُهُ ، ونَعُوذُ باللَّهِ العَظِيمِ مِن شُرُورِ أنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ – تَعَالَىٰ – فَلا مُضِلَّ لَهُ ، ومَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ ، وأشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وأشْهَدُ أنْ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ } [آل عِمْران / ١٠٢]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً } [النِّساء / ١]

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً {٧٠} يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً } [الأَحْزاب / ٧٠ – ٧١]

أَمَّا بَعْدُ : فإِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ – تَعَالَى – وخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ – وشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٍ ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٍ .

رَوَى البُخاريُّ في " الأَدبِ المُفْرَدِ " (٤٩٠) ومُسْلِمٌ في " صَحِيحِهِ " (٢٥٧٧) والبَزَّارُ في " مُسْنَدِهِ " (٤٠٥٣ – البحر الزَّخَّار) والبَيْهَقِيُّ في " الكبرَى " (٦/٩٣) وخَتَمَ بهِ النَّوَوِيُّ كتابَهَ " الأَذْكَار " (١١٢٧) وغَيْرُهُم عَنْ أَبِي إدْرِيسَ – واسْمُهُ عائذُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ – الخَوْلانِيِّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ – جُنْدُبِ بنِ جُنَادةَ – الغِفاريِّ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِيمَا يَرْوِي عَن رَبِّهِ – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – أَنَّهُ قَالَ : يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ

وَجِنَّكُمْ كَانوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا – أيْ : اجْتَمَعوا ووقَفُوا – فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُم مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يُنْقِصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ فِي الْبَحْرِ ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ – أيْ : عَلَىٰ هِدَايَتِهِ وفَضْلِهِ وإِحْسانِهِ – وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ – أيْ : عَلَىٰ ظُلْمِهِ وتَفْريطِهِ وعُدْوانِهِ – .

أيُّها الإخْوةُ الكرامُ : إنَّ اللَّهَ – عَزَّ وجَلَّ – لَم يَخْلُقْ خَلْقَهُ ولَمْ يَبْعَثْ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ ولَمْ يُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ لِيُضَيِّقَ عَلَىٰ النَّاسِ في مَعايِشِهم ، ولا لِكَبْتِ حُرِّيَّاتِهِم ، ولا لِيَعِيشَ النَّاسُ مُحْبَطِينَ ينتقِلُونَ من يأسٍ إِلَىٰ يَأسٍ ومِن خوفٍ إِلَىٰ خَوفٍ !

بلْ هو – سبحانَهُ – خَالِقُهُم ، وهو الذي أسْبَغَ عَلَيْهِم نِعَمَهُ ظاهِرةً وباطِنَةً ويَرزُقُهُم ، وأنْزلَ عَلَيْهِم وَحْيَهُ لِسَعادَتِهِمْ ورحْمةً منهُ بِهِم .

واللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – لَم يَخْلُقْ خَلْقَهُ لِيَتَقَوَّىٰ بِهِم مِن ضَعْفٍ أصَابَهُ – مَعاذَ اللَّهِ – فإنَّ اللَّهَ – تَعَالَى – هو القَوِيُّ المَتِينُ .

واللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – لَم يَخْلُقْ خَلْقَهُ لِيَسْتَعِزَّ بِهِمْ مِنْ ذِلَّةٍ حَلَّتْ بِهِ – حَاشا لِلَّهِ – فإنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جميعًا ، وهو – سُبْحانَهُ – العَزيزُ الحَكيمُ .

واللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – لَم يَخْلُقْ خَلْقَهُ لِيَتَكَثَّرَ بِهِمْ مِنْ قِلَّةٍ يَشْكُو مِنْها – سُبْحانَهُ وبِحَمْدِهِ – فإنَّ اللَّهَ – تَعالَى – هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيد .

وقالَ اللَّهُ – تَعالَى – : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ {١٥} إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ {١٦} وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ } [فاطر/١٥-١٧]

قالَ اللَّهُ – تَعالَى – : { . . . إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ } [إبراهيم/٨]

وقَالَ اللَّهُ – تعالَى – : {إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الزُّمَر/٧]

وقَالَ اللَّهُ – تعالَى – : {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً} [النِّسَاء/١٣١]

وقَالَ اللَّهُ – تعالَى – : {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ {١٩} وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} [إبراهيم/٢٠]

وقَالَ اللَّهُ – تعالَى – : {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [الأنعام/١٣٣]

وإنَّما خَلَقَ اللَّهُ – تعالَىٰ – خَلْقَهُ وبَعَثَ إِلَيْهِم رُسُلَهُ وأنْزَلَ عَلَيْهِم كُتُبَهُ ليَكونَ هو المَعْبُودَ وَحْدَهُ – سبحانَهُ وبِحَمْدِهِ – ولِئلَّا يُعْبَدَ في أرْضِهِ غَيْرُهُ ولِئلَّا يُشْرَكَ مَعَهُ سِواهُ .

ولِئلَّا يُعْبَدَ بِأهْواءِ النَّاسِ وعَاداتِهم ، ولا بقَوانينِ الخَلْقِ ودَساتيرِهِم ، ولَكِنْ بِشَرْعِهِ المُنَزَّلِ ووَحْيِهِ المَعْصُومِ ، ولِئلَّا تَتَعَلَّقَ قُلُوبُ النَّاسِ وآمَالُهُمْ بغيرِ خَالِقِهِمُ العَظيمِ ومَعْبودِهِمُ الكريمِ ، ولِئلَّا تَمْتَدَّ أيْدِيهُم لِغَيْرِ أبوابِ السَّماءِ .

وهذا الحَديثُ أصْلٌ في هذا المَعنىٰ ودلِيلٌ عَلَيْهِ ، وهُو حديثٌ جَزْلُ الألفاظِ فَخْمُ المَعْنَىٰ ، ويَهُزُّ قُلُوبَ المُؤمِنينَ هَزّاً .

وقَدْ كانَ أبو إدْريسَ الخَولانيُّ – رحمه اللَّهُ – إذا حَدَّثَ بهذا الحَديثِ جَثَا – أيْ : بَرَكَ – عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ مِنْ شِدَّةِ هذا الحَديثِ وقُوَّةِ مَعانِيهِ .

وقَالَ الإمامُ أحْمدُ : لَيْسَ لأهْلِ الشَّامِ حَديثٌ أشْرَفَ مِنْ هذا الحديثِ !

وذلكَ لأنَّ رُواتَهُ جَميعـًا شامِيُّونَ أو نَزَلُوا الشَّامَ وسَكَنُوها .

وهُوَ أَحَدُ الأَحَاديثِ الإلَهِيَّةِ ، ويُقَالُ فِيها أَيْضًا : الأحاديثُ القُدُسِيَّة .

وإنَّما يُقَالُ لَها : " **الإلَهِيَّة** " نِسْبةً إِلَىٰ اسمِ اللهِ " **الإلَه** " والإلهُ هُو المَعْبودُ مَحَبَّةً وتَعظِيمًا

قالَ اللَّهُ – تَعالَىٰ – : { **وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ** } [**الزُّخْرُف/٨٤**]

أيْ : وهُو المَعْبودُ مَحَبَّةً وتَعْيمًا في السَّماءِ وفي الأرضِ ، يَعْبُدُهُ أهْلُ السَّماءِ وسُكَّانُها من الملائكةِ ويتذَلَّلونَ له ، كما يَعْبُدُهُ المُؤمنونَ من أهْلِ الأرضِ وسكَّانِها ويَخْضَعونَ له .

وقالَ اللَّهُ – تَعالَىٰ – : { **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ** } أيْ : لا مَعْبودَ بِحَقٍّ إلَّا اللَّهُ { **وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ** } [**محمَّد/١٩**]

ويُقَالُ فيها الأحاديثُ القُدُسِيَّةِ نِسْبَةً إِلَىٰ اسمِ اللهِ القُدُّوس وهو المُنَزَّهُ عن كُلِّ نَقْصٍ والمُطَهَّرُ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ .

قالَ اللَّهُ – تَعالَى – : { **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ** } [**الحَشْر/٢٣**]

وقَالَ – تَعالَى – : { **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** } أيْ : يُنَزِّهُهُ عن كُلِّ نَقْصٍ وعَيْبٍ { **الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** } [**الجُمُعة/١**]

وإمَّا أنْ تَكُونَ " **القُدُسِيَّة** " نِسْبةً إِلَىٰ " **رُوحِ القُدُسِ** " وهُو جِبْريلُ – عَلَيْهِ السَّلام – كما في : قَولِهِ – تَعالَىٰ – : { **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** } [**النَّحل/١٠٢**] أيْ : أَنْزَلَهُ جِبْريلُ مِنْ رَبِّكَ – عَزَّ وجَلَّ – إلَيْكَ .

وقالَ – تَعالَىٰ – : { **وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ** } أيْ : المُعْجِزاتِ كإحْياءِ المَوتىٰ وإبْراءِ الأكْمَهِ والأبْرَصِ { **وَأَيَّدْنَاهُ** } أيْ : قَوَّيْناهُ وثَبَّتْناهُ { **بِرُوحِ الْقُدُسِ** } وهو جِبْريلُ – عَلَيْه السَّلام – .

وَرَوَى ابنُ أبي شَيْبَةَ في " مُصَنَّفِهِ " (١٣/ ٢٢٧ رقم ٣٥٤٧٣) والبَغَوِيُّ في " شرحِ السُّنَّةِ " (٤١١٢ و٤١١٣) والقُضَاعِيُّ في " مُسْنَدِ الشِّهابِ " (١١٥١) وغَيْرُهُم بإسْنادٍ جَيِّدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – : " إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي " أيْ : أَلْقَىٰ في نَفْسِي وقَلْبي !

والـمَعْنَىٰ : أَوْحَىٰ إِلَيَّ " أَنَّ نَفساً لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وأَجَلَهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ ولا يَحْمِلْكُم اسْتِبْطاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللَّهِ – تَعَالَى – فإِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لا يُنَالُ إلا بِطَاعَتِهِ " *

والـمُرَادُ بِرُوحِ الْقُدُسِ هنا : جِبْرِيلَ – عَلَيْهِ السَّلامُ – .

والأحَاديثُ الإلَهِيَّةُ هي مِنْ كَلامِ اللَّهِ – تَعالَىٰ – لَفْظَاً ومَعْنَىٰ كالقُرآنِ الكريمِ ، ولكنَّها تَخْتَلِفُ عن القُرآنِ الكريمِ في مَواضِعَ :

مِنها : أنَّ القُرآنَ مُعْجِزٌ في نَفْسِهِ ، وتَحَدَّىٰ اللَّهُ – تَعالَىٰ – جَميعَ خَلْقِهِ بِهِ كُلِّهِ وبِعَشْرِ سُوَرٍ وبِسُورةٍ واحِدٍ منه ، كما في قَولِهِ – تَعالَىٰ – : { قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً } [الإسْراء /٨٨]

وقالَ اللَّهُ – تَعالَىٰ – : { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [هُود /١٣]

وقَالَ اللَّهُ – تَعالَىٰ – : { وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [البَقَرة /٢٣] **

قالَ الإمامُ أحمدُ – رحِمه اللَّهُ – : الْقُرْآنُ مُعْجِزٌ بِنَفْسِهِ ، فَمَنْ قَالَ : الْقُرْآنُ مَقْدُورٌ عَلَىٰ مِثْلِهِ وَلَكِنْ مَنَعَ اللَّهُ قُدْرَتَهُمْ = كَفَرَ ، بَلْ هُوَ مُعْجِزٌ بِنَفْسِهِ ، وَالْعَجْزُ شَمِلَ جَمِيعَ الْخَلْقِ ***

وأمَّا الحديثُ القُدُسِيُّ فلا يُقْصَدُ به الإعجازُ ولا يُرادُ بِهِ التَّحَدِّي .

ومِنْها : أنَّ القُرآنَ الكريمَ مَوعُودٌ بحِفْظِهِ ، مُبَرَّأٌ من التَّحريفِ أو الزِّيادةِ فيهِ أو النُّقْصَان كما قال اللَّهُ – تَعالَىٰ – : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحِجْر /٩] ولَيْسَتْ كذلكَ الأحَاديثُ القُدُسِيَّةُ ، بلْ كَثيرٌ منها ضعيفٌ أومُنْكَرٌ أومَوضُوعٌ ، والقَدْرُ الثَّابتُ مِنْها عَدَدٌ قَلِيلٌ .

---

* وهو حَديثٌ حَسَنٌ بشَواهِدِهِ ، وصَحَّحَه الألبانيُّ – رحمه اللَّهُ – في " الصَّحيحة " (٢٨٦٦) و " صحيح الجامع " (٢٠٨٥) و " تحقيق المشكاة " (٥٣٠٠) وغَيْرِها .

** ونَحْوُهَا قَولُ اللَّهُ – تَعالَى – : { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [يُونُس/٣٨]

*** " التَّحْبير شرح التَّحرير " للمرداوي (٣/ ١٣٥٤) وعَنْهُ " شَرْح الكَوكَب المَنِير " لابن النَّجَّارِ الفُتُوحِي (٢/ ١١٥)

ومِنـهـا : أنَّ القُـرأنَ يُتَعَبَّدُ بتلاوتِهِ ، ومَوْعُودٌ علَىٰ تِلاوةِ كُلِّ حَرْفٍ مِنه بعَشْرِ حَسَناتٍ ، ويُقْرَأُ بِهِ في الصَّلَواتِ ، ولَيْس كذلكَ في الأحاديثِ الإلَهيَّةِ ، فلا تَنْعَقِدُ بها الصَّلاةُ ، وعَلَيْها أجْرٌ لَكِنْ لَيْسَ كَهذا الأجْرِ المَخْصُوصِ في تِلاوةِ القُرآن .

ومِنْها : أنَّ نُزُولَ القُرآنِ لا يَكُونُ إلَّا بواسِطةِ الرَّسُولِ المَلَكِيِّ جِبْرِيلَ – عَلَيْهِ السَّلامُ – بخلافِ الحَديثِ القُدُسِيِّ فقدْ يكونُ بواسطةِ جبريلَ علَيْهِ السَّلامُ – أو بواسِطةِ غَيْرِهِ ، وقد يكونُ إلْهامًا أو مَناماً بِدونِ مَلَكٍ .

ومِنها : أنَّ القُرآنَ الكريمَ مُتَواتِرٌ في نَقْلِهِ ، يَنْقُلُهُ الجِيلُ عن الجيلِ بخلافِ الأحاديثِ القُدُسِيَّةِ فكثيرٌ مِنها أخبارُ آحادٍ ، ولا يَكادُ يَثْبُتُ حديثٌ قُدُسِيٌّ مُتواتِرٌ !

ومنها : أنَّ القُرآنَ الكريمَ لا يجوزُ لأحَدٍ أنْ يَمَسَّهُ أو يَقْرَأَهُ إذا كانَ مُحْدِثاً حَدَثاً أكبرَ كالجُنُبِ والحائضِ ، كما قَالَ اللَّهُ – تَعالَىٰ – في القُرآنِ : { لا يَمَسُّهُ إلَّا الْمُطَهَّرُونَ } أَيْ : مِنَ الحَدَثِ كالْجَنَابَةِ وغَيْرِهَا ، عَلَىٰ أحَدِ القَوْلَيْنِ في تَفْسيرِ الآيةِ الكريمةِ .

ورَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ في " مُوَطَّئِهِ " (١/١٩٩) والدَّارميُّ في " مُسْنَدِهِ " (٢٣١٢) وابنُ حِبَّانَ في " صَحِيحِهِ " (٦٥٥٩) والدَّارقُطْني في " سُنَنِهِ " (٢٢٢) والحاكمُ في " المُسْتَدْرك " (١/٣٩٥) والبَيْهَقِيُّ في " الكبرى " (١/٨٧) وغَيْرُهُم عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزم عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَتَبَ إلَىٰ أهْلِ اليَمَنِ بكتابٍ فِيهِ الفَرائضُ – أيْ : أحْكامُ المَواريثِ – والسُّنَنُ والدِّياتِ ، وفيه : " **أَلَا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إلا طَاهِرٌ** "

والأحاديثُ القُدُسِيَّةُ لَيْسَتْ كذلكَ ، بلْ يَجُوزُ أنْ يَمَسَّها ويَقْرَأَهَا الجُنُبُ والحائضُ وغَيْرُهُما .

ومِنْها : أنَّ القُرآنَ الكريمُ يُكْرَهُ بَيْعُهُ عِنْدَ كثيرٍ من العُلَماءِ كالشَّافعيَّةِ وغَيْرِهِم ، ويَحْرُمُ بَيْعُه عندَ الحنابلةِ ومَنْ وافَقَهُم .

ولَيْسَ كذلكَ الأحاديثُ القُدُسِيَّةُ ، بلْ يَجُوزُ بيْعُها بلا كراهةٍ كسائرِ كُتُبِ العِلْمِ .

ومِنْها : أنَّ الجُمْلَةَ من القُرآنِ تُسَمَّىٰ آيةً ، ومَجْموعةُ الآياتِ تُسَمَّىٰ سُورةً ، بيْنما الأحاديثُ القُدُسِيَّةُ لا تُسَمَّىٰ جُمَلُها آياتٍ ولا سُوَراً * .

---

* انظر " الصَّحيح المسند من الأحاديث القُدسيَّة " لشَيْخِنا مصطفى بن العدويّ - وفَّقه اللهُ تعالَى – (٤-٥) " جامع الأحاديث القُدُسِيَّة " لعصام الصَّبابطي (١/٢٤-٣٤) " الأحاديث القدسية جمعاً ودراسةً " لعمر على (١/٢٣-٢٥) " الأحاديث القدسيَّة دراسة بلاغيَّة " (٣-٤)

وقد نادَىٰ اللَّـهُ – عَزَّ وجَلَّ – خَلْقَهُ في هذا الحديثِ نداءاتٍ عَشَرةً ، يَقُولُ في مَطْلَعِ كُلِّ نداءٍ مِنْها :

"يا عِبادي " ، وأَصْلُ العُبُوديَّةِ في نُصُوصِ الكِتَابِ والسُّنَّةِ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ أو نَوْعَيْنِ :

أَمَّا النَّوعُ الأَوَّلُ : فهي العُبُوديَّةُ العَامَّةُ ، وهي عُبوديَّةُ الخَلْقِ والمُلْكِ والقَهْرِ والتَّدْبِيرِ .

وهذه العُبوديَّةُ يَدْخُلُ فِيها الخَلْقُ كُلُّهُم مُسْلِمُهُم وكافِرُهُم، بَرُّهُم وفاجِرُهُم ، مُؤمِنُهُم ومُجْرِمُهُم ، تَقِيُّهُم وشَقِيُّهُم، كَبِيرُهُم وصَغِيرُهُم ، ذَكَرُهُم وأُنْثاهُم ، والإِنْسُ والجِنُّ وغَيْرُهُم .

كُلُّهم خَلْقُهُ وصَنْعَتُهُ ، كُلُّهُم عَبِيدُهُ ومُلْكُ يَدِهِ ، أَنْفَاسُهُم بأَمْرِهِ ، ونَبْضُ قُلُوبِهِم بيَدِهِ .

يُحْيِي مَنْ يَشاءُ ويُمِيتُ مَنْ يَشاءُ ، يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ويُذِلُّ مَنْ يَشاءُ ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ ويُوَسِّعُهُ ، ويَقْدِرُ الرِّزْقَ عَلَىٰ مَنْ يَشاءُ ويُضَيِّقُهُ ، يُعَافِي مَنْ يَشاءُ ويَهْدِي بفَضْلِهِ ، ويَبْتَلِي مَنْ يَشاءُ ويُضِلُّ بعَدْلِهِ ، ولا رادَّ لأَمْرِهِ فِيهم ، ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ عَلَيْهِم :

قَالَ اللَّهُ – تَعالَى – : { وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ } [الأَنعَامُ / ١٨]

وقَالَ اللَّهُ – تَعالَى – : { إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً {٩٣} لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وعَدَّهُمْ عَدّاً {٩٤} وكُلُّهُم آتِيهِ يَومَ القِيامَةِ فَرْداً } [مَرْيَم /٩٣– ٩٥]

وهذه العُبوديَّةُ ليْسَ فيها كَرامَةٌ لأَحَدٍ ولا عِزٌّ ولا شَرَفٌ ، ولكِنَّها عُبُوديَّةُ خَلْقٍ وقَهْرٍ ، ويَشْتَرِكُ فيها جَمِيعُ الخَلْقِ .

وأَمَّا النَّوْعُ الثَّاني : فَهِيَ العُبُوديَّةُ الخَاصَّةُ عُبوديَّةُ المَحَبَّةِ والرِّضا ، عُبوديَّةُ الطَّاعَةِ والاسْتِجابَةِ

وهذه العُبوديَّةُ فِيها الشَّرَفُ كُلُّهُ والعِزُّ كُلُّهُ ، والكَرامَةُ البالِغَةُ والمَنْزِلَةُ العَالِيَةُ .

وكُلَّمَا كانَ الإِنْسانُ لِرَبِّهِ أَعْبَدَ ولطاعَتِهِ أَسْرَعَ كانَ عِندَهُ أَعزَّ وأَشْرفَ ، وإليه أحبَّ وأقربَ .

وهذه العُبوديَّةُ خَاصَّةٌ بالمُؤمِنِينَ وَحْدَهُم ولا يُشَارِكُهُم فِيها غَيْرُهُم .

قال اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – : { يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ {٦٨} الذينَ آمَنُوا بآيَاتِنَا وكَانُوا مُسْلِمِينَ }

[الزُّخْرُف / ٦٨– ٦٩]

وقالَ اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – : { والذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدوها وأَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُم البُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ {١٧} الذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئكَ الذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وأُولَئكَ هُمْ أُولُوا الأَلبَابِ } [الزُّمر /١٧– ١٨]

وقالَ اللَّهُ – عَزَّ وجلَّ – : { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الذينَ يَمْشُونَ عَلَى الأرْضِ هَوْناً وَإذا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً }

[الفُرقان/٦٣–٧٧] إلَىٰ آخِرِ صِفَاتِهِم .

وهذه العُبُوديَّةُ فِيها الشَّرَفُ كُلُّهُ والعِزُّ والكَرامةُ ، وكانَ الشَّافِعِيُّ –رَحِمَهُ اللَّهُ– كَثيراً ما يَقُولُ :

ومِمَّا زادَنِي فَخْـــــراً وتِيهاً *** وكِدْتُ بأَخْمَصِي * أنْ أطأَ الثُّرَيَّا

دُخُولِي تَحْتَ قَولِكَ يا عِبَادي *** وأنْ أرْسَلْتَ أحْمَــــــدَ لِي نَبِيَّاً

أيْ : ومِمَّا زادَنِي فَخْراً وشَرَفاً وعِزَّاً وكَرَامَةً أنْ أكُونَ لَكَ عَبْدٌ ، وأنْ أكونَ من أمَّةِ النَّبِيِّ الأكْرَمِ والرَّسُولِ الأعْظَمِ مُحَمَّدٍ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – .

وقال أبو عَلِيٍّ الدَّقَّاقِ : لَيْسَ شيءٌ أشْرَفَ ، ولا اسْمٌ أعَزَّ للْمُؤمِنِ مِنْ وَصْفِهِ بالعُبوديَّةِ لِرَبِّهِ .

ولِذلِكَ لَمَّا نَوَّهَ اللَّهُ – تَعَالَىٰ – بِفَضِيلَةِ جَمَاعَةٍ من الكُمَّلِ مِنْ خَلْقِهِ والفُضَلاءِ مِنْ رُسُلِهِ وَصَفَهُم بالعُبُوديَّةِ لا بالنُّبُوَّةِ والرِّسالةِ ، لأنَّه لا يكونُ نَبيٌّ ولا رَسُولٌ إلا بَعْدَ أنْ يُحَقِّقَ العُبُوديَّةِ لِرَبِّه = فَقالَ – عَزَّ مِنْ قائلٍ – : { ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً } [الإسْراء/٢]

وقال – تَعَالَىٰ – : { واذْكُرْ عِبَادَنَا إبراهِيمَ وإسْحَاقَ ويَعْقُوبَ أُولِي الأيْدِي والأبصارِ } [ص/٤٥]

" الأيْدِي " أيْ القُوَّةُ والهِمَّةُ في طَاعَةِ اللَّهِ " والأبصَار " أيْ : العِلْمُ النَّافِعُ والبَصِيرَةُ النَّافِذَةُ .

وقال اللَّهُ – تَعَالَىٰ – : { واذْكُرْ عَبْدَنَا أيُوبَ إذْ نَادَى رَبَّهُ أنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وعَذابٍ } [ص/٤١]

فَوَصَفَهُ بالعُبُوديَّةِ أيْضاً لِشَرَفِهَا ، ورِفْعَةِ مَنْزِلَةِ أهْلِها .

وقَالَ اللَّهُ – تَعَالَى – : { واذْكُرْ عَبْدَنَا داوُدَ ذَا الأيْدِ إنَّهُ أوَّابٌ } [ص/١٧]

" ذا الأيْدِ " أيْ : ذا القُوَّةِ والبَطْشِ ، والمُلْكِ والسُّلْطَانِ ، وذلكَ لأنَّ داودَ – عَلَيْهِ السَّلام – هو أوَّلُ أنْبياءِ بَنِي إسْرائيلَ الذينَ جَمَعَ اللَّهُ – تَعَالَىٰ – لَهُم بَيْنَ النُّبُوَّةِ والوَحْيِ من جِهَةٍ ، والمُلْكِ والرِّئاسَةِ مِنْ جِهَةٍ أخْرَىٰ ، وذلِكَ لَمَّا قَتَلَ داودُ جَالُوتَ وحَرَّرَ بَيْتَ المَقْدِسِ مِنْ أيْدِي الجبَّارينَ ، كما قال – تَعَالَىٰ – : { فَهَزَمُوهُم بِإذْنِ اللَّهِ وقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ } [البَقَرَة/٢٥١] فكانَ داودُ – عَلَيْهِ السَّلامُ – مَلِكَاً نَبِيَّاً ، ولذلكَ قال اللَّهُ – تَعَالَىٰ – في وَصْفِهِ : { ذَا الأيْدِ } أيْ : ذَا القُوَّةِ والبَطْشِ { إنَّهُ أوَّابٌ } .

وقالَ اللَّهُ – تَعَالَى – : { ووَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ } [ص / ٣٠]

وقَالَ اللَّهُ – تَعَالَىٰ – : { ولَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ {٥٧} وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ {٥٨} إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ } [الزُّخْرُف / ٥٩]

{ إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ } أيْ : ليسَ ربّاً مَعْبُوداً ، ولَيْسَ إلهاً مَقْصُوداً ، وليسَ هُوَ اللَّهُ ولا ابْناً للإلَهِ

{ إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وجَعَلْناه مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائيلَ } .

ولَمَّا أذِنَ اللَّهُ – تَعَالَىٰ – لِعِيسَىٰ – عَلَيْهِ السَّلامُ – أنْ يَتَكَلَّمَ في المَهْدِ عَلَىٰ خِلافِ عادةِ النَّاسِ كانَتْ أوَّلُ كَلِمةٍ قالَها : { إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وجَعَلَنِي نَبِيّاً } [مريم / ٣٠]

ولَمْ يَقُل : إنِّي أنا اللَّهُ أو إنِّي ابْنُ اللَّه ، وإنَّما أعْلَنَ خُضُوعَهُ لِرَبِّهِ ، وذُلَّهِ لِمَنْ خَلَقَهُ ، وعِبادَتَهُ لِمَنْ يَتَوَلَّىٰ أمْرَهُ .

وقالَ اللَّهُ – تَعَالَى – : { لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً {١٧٢} فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً } [النساء/ ١٧٢– ١٧٣]

ونَبِيُّنا – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْه وسلَّم – وهُو سَيِّدُ الأنْبِياءِ كُلِّهِم والمُقَدَّمُ بَيْنَهُم = كانَ يَتَعَزَّزُ بِهَذِهِ العُبودِيَّةِ كثيراً ، ويُحَقِّقُها عَلَىٰ كُلِّ أحْوالِهِ :

رَوَى البُخاريُّ (٤٨٣٦) ومُسْلِم (٢٨١٩) وغَيْرُهُما عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – صَلَّى حَتَّى انْتَفَخَتْ قَدَمَاهُ ، فَقِيلَ لَهُ : أَتَكَلَّفُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَقَالَ : " أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُوراً ؟ ! "

وَرَوَى البُخَاريُّ (٤٨٣٧) ومُسْلِم (٢٨٢٠) وغَيْرُهُما عَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْها – قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ* رِجْلاهُ ! قَالَتْ عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَقَالَ : " يَا عَائِشَةُ أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً ؟ ! "

---

* قَولُها : " تَفَطَّرُ " : أَصْلُها تَتَفَطَّرُ ، حُذِفَتْ إحْدَى التَّاءَيْنِ ، أيْ : تَتَشَقَّقُ !

ومِنْهُ قَولُهُ – تَعَالَى – : { إذا السَّماءُ انْفَطَرَتْ } [الانْفِطَار / ١] وقَولُهُ – تَعَالَى – : { تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً } [مريم / ٩٠] وقَوْلُهُ – تَعَالَى – : { تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ } [الشُّورى/ ٥] =

لا يَعْرِفُ الشَّوقَ إلا مَنْ يُكَابِدُهُ *** ولا الصَّبابةَ إلا مَنْ يُعَانِيها

وإذا اشْتَبَكَتْ دُمُوعٌ في خُدُودٍ *** تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

وقد ذَكَرَ اللَّهُ – تَعَالَىٰ – رسُولَهُ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – في أشرَفِ المَواطِن بوصْفِ العُبُوديَّةِ لا بوصْفِ النُّبُوَّةِ والرِّسالَةِ ، إيذانـًا بِشَرَفِها وكرامةِ أهْلِها :

فقالَ اللَّهُ – تَعَالَىٰ – في مَقَامِ الوَحْي إليْهِ : { فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى } [النَّجْم /١٠]

وقال في مَقامِ تَنْزيلِ القُرآنِ عَلَيْهِ : { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً } [الفُرقان/١]

وقال أيْضَـًا : { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَاً } [الكهف /١]

وقال – تَعَالَىٰ – في مَقَامِ الإسْراءِ به : { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ } [الإسْراء /١]

وقال في مَقامِ الدَّعْوةِ والبَيانِ : { وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً } [الجنّ/ ١٩]

وقال في مَقامِ التَّحَدِّي والإعْجَازِ : { وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ } [البَقْرة/٢٣]

وقال في مَقَامِ حِفْظِهِ وحِمايَتِهِ : { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ } [الزُّمر/٣٦]

وهَكَذا في كُلِّ مَقامٍ ، فإنَّه – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْه وسَلَّم – كانَ عَبْداً للَّهِ – تَعَالَىٰ – في كُلِّ مَوضِعٍ ، وكانَ عَبْداً للَّهِ – تَعالَىٰ – عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ .

وقَولُهُ – تَعَالَىٰ – في مَطْلَعِ هذا الحديثِ : { يا عِبَادِي } هو من النَّوعِ الأوَّلِ – العُبُوديَّةُ العَامَّةُ – فَفِيهِ خِطابٌ للنَّاسِ أجمعينَ ، ونِداءٌ علَىٰ جميعِ المُكَلَّفينِ !

= وذلكَ لِطُولِ صَلاتِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وسلَّم – ودوامِ قِيَامِهِ ، حتَّى إنَّهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – في أُخْرَياتِ أيَّامِهِ لَمَّا ضَعُفَ بَدَنُهُ وكَثُرَ لَحْمُهُ – صَلَّى اللَّهُ عليْه وسَلَّم – لم يَكُنْ يَسْتَطِيعُ أنْ يَقُومَ في صَلاتِهِ ، ولم تَكُنْ تَحْمِلُهُ قَدَماه ، فكانَتْ أغْلَبُ صلاتِهِ وهو قاعِدٌ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – كَما في تَتِمَّةِ هذا الحديث ، إذْ قالَتْ عَائشةُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْها - : فَلَمَّا كَثُرَ لَحْمُهُ صَلَّى جَالِساً ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ فَقَرَأَ ثُمَّ رَكَعَ ، وقَدْ رَوَى الإمامُ مُسْلِمٌ في " صَحِيحِهِ " (٧٣٢) وأبُو داودَ في " سُنَنِه " (٩٥٦) وأحْمدُ في " مسْنده " (١٧١/٦و٢١٨) وغَيْرُهُم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ : قُلْتُ لِعَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْها - : هَلْ كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُصَلِّي وَهُوَ قَاعِدٌ ؟ قَالَتْ : « نَعَمْ ، بَعْدَ مَا حَطَمَهُ النَّاسُ »

وقولُهُ – تَعالَىٰ – في أوَّلِ هذا الحديثِ : {إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي} فيه فوائدُ :

أوَّلاً : التَّحريمُ في لِسانِ العَرَبِ الذي نَزَلَ به القُرآنُ وتَكلَّمَ بهِ الرَّسُولُ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – يَدُورُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ المَنْعِ .

ومِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ – تَعالَىٰ - : {وحَرامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُم لا يَرْجِعُونَ} [الأنبياء/٩٥]

والمَعْنَىٰ – عَلَىٰ أحَدِ الأقْوَالِ في تَفْسِيرِ الآيَةِ - : مَمْنُوعٌ مَنْعاً باتّاً عَلَىٰ قَرْيَةٍ حَكَمْنا عليْهِم بالهَلاكِ أنْ يَعُودوا إلَىٰ الحَيَاةِ الدُّنْيا مَرَّةً ثانية ، بل إنَّ الأصْلَ أنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ لا يَرْجِعَ إلىٰ الحَياةِ الدُّنْيا مَرَّةً ثانيةً {وحَرامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُم لا يَرْجِعُونَ}* [الأنبياء/٩٥]

ومِنْ ذَلِكَ – أيضاً – ما رواه أحمدُ في " مُسْنَدِهِ " (١/ ١٢٣) وأبو داود (٦١ و٦١٨) والتِّرمذِيُّ (٣) وابن ماجه (٢٧٥) وغَيْرُهُم عَنْ عَلِيِّ بنِ أبي طَالِبٍ – رضِيَ اللَّهُ عنه – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – : " مِفْتَاحُ الصَّلاةِ الطُّهُورُ ، وتَحْرِيمُها التَّكْبِيرُ وتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيم "

" وتَحْرِيمُها التَّكْبِيرُ " أيْ : إنَّهُ بعدَ تَكبيرةِ الإحرام يَدْخُلُ في الصَّلاةِ ويَحْرُمُ عَلَيْهِ ما كانَ مُباحاً قَبْلَها كالأكْلِ والشُّرْبِ وعُمُومِ الكَلامِ .

ومِنْ ذلِكَ أيْضاً مَكَّةُ البَلَدُ الحَرَامُ والكَعْبَةُ البَيْتُ الحَرَامُ : لِحُرمَةِ الصَّيْدِ والقِتالِ فيها .

وقَدْ روَى البُخاريُّ (١٣٤٩) ومُسْلِمٌ (١٣٥٣) وغَيْرُهُما عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ – رضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ – قَالَ يَومَ الفَتْحِ : " إنَّ هَذا البَلَدَ – يَعْنِي : مَكَّةَ – حَرَّمَهُ اللَّهُ – تَعالَى – يَومَ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ ، وإنَّهُ لَمْ يَحِلَّ القِتالُ فِيهِ لأحَدٍ قَبْلِي ، ولَمْ يَحِلَّ لِي إلَّا سَاعَةً مِنْ نَهارٍ ، فهو حَرامٌ بحُرْمَةِ اللَّهِ – تَعالَى – إلَى يَومِ القِيَامَةِ : لا يُعْضَدُ شَوكُهُ ، ولا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ ، ولا يُخْتَلَى خَلاهُ ، ولا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إلَّا مَنْ عَرَّفَهَا . . . الحديث

---

* وعلَى ذلك فحرفُ " لا " في قَولِهِ " لا يَرْجِعونَ " زائدٌ للتَّوْكيدِ ويَشُدُّ المَعْنَى ويُقَوِّيه ، وله نظائرُ في القُرْآنِ ، منها : قَولُهُ – تَعالَى - : { لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ } [الحديد/٢٩] والمَعْني : لِيَعْلَمَ أهْلُ الكِتَابِ ، وقَولُهُ – تَعَالَى - : { قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ } [الأعراف/١٢] والمَعْنَى : ما مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ . وقَولُهُ – تَعَالَى - : { لا أُقْسِمُ بيومِ القِيَامَةِ (١) ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } [القِيامة/١-٢] والمَعْنى : أُقْسِمُ بِذلِكَ . وقَوْلُهُ – تَعَالَى - : { وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ } [الأنعام/١٠٩] والمَعْنَى : وما يُدْريكُم – أيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ – أَنَّ الْآيَاتِ إِذَا جَاءَتِ الْمُشْرِكِينَ يُؤْمِنُونَ ؟ ... إلخ ، وفي كُلِّ هذه الآياتِ أقوالٌ أخْرَى مَعْروفَةٌ في مَظَانِّها ، واللَّهُ أعْلَمُ .

** وصَحَّحَ النَّوَوِيُّ إسْنادَهُ في " المَجْموع " (٣/٢٨٩) والحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ في " الفَتْح " (٢/٣٢٢)

والتَّحْرِيمُ عِنْدَ جَمَاعَةِ العُلَمَاءِ يَنْقَسِمُ إِلَىٰ قِسْمَيْنِ :

القِسْمُ الأَوَّلُ : المُحَرَّمُ لِذاتِهِ ، وهُو ما كانَ تَحْرِيمُهُ أَصْلِيًّا في كُلِّ شريعَةٍ ورسالةٍ ، وعَلَىٰ لِسانِ كُلِّ نبِيٍّ وَرَسُولٍ ، بِحَيْثُ لَمْ يَحِلَّ قَطُّ ولم يُبِحْه اللَّهُ – تَعالَىٰ – في أيِّ أُمَّةٍ ومِلَّةٍ كتَحْرِيمِ الكُفْرِ والشِّرْكِ وعُقُوقِ الوالِدَيْنِ* وقَتْلِ النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللَّهُ – تَعالَىٰ – بِغَيْرِ حَقٍّ وأَكْلِ أمْوالِ النَّاسِ بالبَاطِلِ والفَواحِشِ بأَنْواعِها والغِشِّ والزُّورِ والكَذِبِ ،.. إلَخ .

وقَد ذَكَرَ اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – طائفةً مِنْ هَذهِ المُحَرَّماتِ في قَولِهِ – تَعالَىٰ – : { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [الأعْراف/٣٣]

وذكَرَ منها عَشَرةً في آياتِ الوصِيَّةِ في سورةِ الأنعامِ ** وذكَرَ منها طائفةً أُخْرى في سُورةِ الإسراءِ ***

* فإنَّ برَّ الوالِدَيْنِ واجِبٌ حتَّى لو كانا كافرينِ ، فإنَّ كُفْرَهُما لا يُسْقِطُ حَقَّهُما ، كما قالَ – تَعالَى – : { وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [لُقْمَان/١٥]

وأخرج البُخاريُّ (٢٦٢٠) ومُسْلِمٌ (١٠٠٣) وغَيْرُهُما عنْ أَسْماءَ بنتِ أَبي بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – قَالَتْ : قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وهي مُشْرِكَةٌ في عَهْدِ رسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – فاسْتَفْتَيْتُ رسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – ، قُلْتُ : إنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وهي راغِبَةٌ ، أَفَأَصِلُ أمِّي ؟ قال : " نَعَم صِلِي أمَّكِ "

وأخرج ابنُ حِبَّانَ في " صحيحِهِ " (٤٢٨) والبَزَّار في " مسْنَدِهِ " (٧٩٧٨) والطَّبرانيُّ في " الأوسط " (٢٢٩) وغيرُهُم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قَالَ : مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ وَهُوَ فِي ظِلِّ أَجَمَةٍ – وهي مَنْبَت الشَّجر – فَقَالَ : قَدْ غَبَّرَ عَلَيْنَا ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ !*

فقَالَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : وَالَّذِي أَكْرَمَكَ وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَئِنْ شِئْتَ لآتِيَنَّكَ بِرَأْسِهِ ؟

فقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – : " لا ، وَلَكِنْ بِرَّ أَبَاكَ وَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُ " وانظر " الصَّحِيحَة " (٣٢٢٣)

** من قَولِهِ – تَعَالَى – : { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلا تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ... } إلَى قَولِهِ – تَعَالَى – : { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [الأنعام/١٥١-١٥٣]

*** من قَولِهِ – تعالَى : { لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً } إلَى قَوْلِهِ – تَعَالَى – : { وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً } [الإسْراء/٢٢-٣٩]

* قالَ الحَافِظُ في " الفتح " (٤٠/١) : أبو كبشة أحَدُ أجْدادِ النَّبيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – ، وعادةُ العَرَبِ إذا انْتَقَصتْ نَسَبَتْ إلَى جَدٍّ غَامِضٍ .

والقِسْمُ الثَّاني : المُحَرَّمُ لِغَيْرِهِ وهُو مَا كانَ في أصْلِهِ حَلالاً لَكِنْ عَرَضَ لَهُ عارِضٌ جَعَلَهُ حَراماً !

ومِثالُ ذلكَ : النِّكاحُ ، فإنَّ النِّكاحَ في أصْلِهِ حَلالٌ ، بلْ هُو سُنَّةٌ مُسْتَحبَّةٌ عِنْدَ جَماهيرِ العُلَماءِ*

وهو مِنْ سُنَنِ المُرسَلِينَ الثَّابِتَةِ عَنْهُم لِقَوْلِهِ – تَعَالَىٰ – : {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً} [الرَّعْد/٣٨]

وأخْرَجَ البُخَارِيُّ (٥٠٦٣) ومُسْلِمٌ (١٤٠١) وغَيْرُهُما عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : جَاءَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ مِنْ أصْحابِ النَّبيِّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – إلىٰ بُيُوتِ أزواجِهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادةِ النَّبِيِّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وعَمَلِهِ في السِّرِّ ؟ فَلَمَّا أُخْبِروا كَأَنَّهُم تَقَالُّوها ! فقالُوا : أينَ نَحْنُ مِن النَّبِيِّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ؟ قد غَفَرَ اللَّهُ له مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ وما تَأخَّرَ ، فَقالَ أحدُهُم : أمَّا أنا فإنِّي أُصَلِّي اللَّيلَ أبداً ! وقال آخَرُ : أنا أصُومُ الدَّهْرَ ولا أُفْطِرُ ! وقالَ آخَرُ : أنا أعْتَزِلُ النِّساءَ فلا أتَزَوَّجُ أبداً !

فَجاءَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – فقال : " أنْتُم الذينَ قُلْتُم كَذا وكَذا ؟ أمَا واللَّه إني لأخْشاكُم للَّهِ وأتقاكُم له ، لكنِّي أصُومُ وأُفْطِرُ وأُصَلِّي وأرْقُد وأتَزَوَّجُ النِّساءَ ، فمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْس مِنِّي " . هذا اللَّفْظُ للبُخاريِّ **

فدلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ النِّكاحَ مِنْ سُنَّتِهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسَلَّم – ، وأنَّ التَّعَبُّدَ بتَركِهِ خارِجٌ عن سُنَّتِهِ ، وقد تَبَرَّأَ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسَلَّم – مِمَّنْ تَقَرَّبَ للَّهِ – تعالَىٰ – بتَرْكِ النِّكاح .***

وأخْرَجَ البُخَاريُّ في " صحيحِهِ " (٥٠٦٩) وأحمد في " مُسْنَدِهِ " (١/ ٢٣١) والبَزَّار (٥١٠٩) والطَّبرانيُّ في " الكبير " (١٢/ ٩ رقم ١٢٣١٣) وغَيْرُهُم عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : ....

---

* وذهَبَت الظَّاهريَّةُ إلى وُجُوبِهِ ، وهي روايةٌ عن الإمام أحمدَ وقولُ بعضِ أصْحابِهِ ، واسْتَدَلُّوا بعِدَّةِ أدلَّةٍ ، انظرها مع مناقشتِها في " المُحَلَّى " (٣/١١) " المُغني " (٩/٣٤٠-٣٤١) " المجموع " (١٣٩/١٧ – عالم الكتب)

** ولَفْظُ مُسْلِمٍ : عَنْ أَنَسٍ – رضِيَ اللَّهُ عنه – أَنَّ نَفَراً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَنْ عَمَلِهِ في السِّرِّ ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ! وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لا آكُلُ اللَّحْمَ ! وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لا أَنَامُ عَلَىٰ فِرَاشٍ ! فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا ؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي "

*** وعِنْدَ البُخاريِّ (٥٠٧٣) مسلم (١٤٠٢) وغيرِهما عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قَالَ : رَدَّ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَىٰ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ التَّبَتُّلَ ، وَلَوْ أَذِنَ لَهُ لاخْتَصَيْنَا .

قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنهما - : هَلْ تَزَوَّجْتَ ؟ قُلْتُ : لا ، قَالَ : فَتَزَوَّجْ فَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً .

يَعني بذلكَ رسولَ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – فإنَّهُ هُوَ خَيْرُ هذه الأمَّةِ وقد كانَ أكثَرَها نساءً يُريدُ أنْ يَقُولَ : إنَّ رسُولَ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – كانَ من هَدْيِهِ وسُنَّتِهِ الزَّواجُ ، فلَكَ فيهِ أسْوةٌ ، ولكَ في سُنَّتِهِ قُدْوةٌ *

ثُمَّ إنَّكَ النِّكاحَ سبيلٌ لإعْفافِ النَّفْسِ والغَيْرِ ووتَحْصِيلِ الثَّوابِ والأجْرِ ، وقد رَوَىٰ الإمامُ مُسْلِمٌ في " صحيحِهِ " (١٠٠٦) وأبو داود (٥٢٤٣و٥٢٤٤) وأحمد (٥/ ١٦٧و١٦٨) وابنُ حِبَّانَ (٨٣٨) وغيرُهُم عَنْ أَبِي ذَرٍّ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالُوا لِلنَّبِيِّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ ! قَالَ : أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ ، وَفِي بُضْعِ** أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ "

قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟ قَالَ : " أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ " .

---

* هذا أَحَدُ الوجْهَيْنِ في فَهْم كلام ابن عَبَّاسٍ – رضِيَ اللَّهُ عنهما – وأنَّ المَقْصودَ بذلكَ رسولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – والحَثُّ علَى التَّأسِّي بهِ .

والوجْهُ الثَّاني في معنى كلامِ ابنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنهما - : أنَّ أفضلَ هذه الأمَّةِ مَنْ كَثُرَتْ نِساؤه لكثرةِ المنافعِ التي تَتَرَتَّبُ على ذلكَ من مَصْلَحةِ النَّفقةِ والإعفافِ وكَثْرةِ النَّسل وغير ذلك . وهذه الأفضليةُ إذا استوى مع غيرهِ في كُلِّ الجوانبِ الأخرى ، وإلَّا فَقَدْ يكونُ هناكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ منه لكِنْ باعتِباراتٍ أخرى ، واللَّهُ أعْلَم .

قالَ الشَّوْكاني – رحمه اللَّهُ - : قَوْلُهُ : " فَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَكْثَرُهَا نِسَاءً " قِيلَ : مُرَادُ ابْنِ عَبَّاسٍ بِخَيْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا وَقَعَ عِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ بِلَفْظِ : " فَإِنَّ خَيْرَنَا كَانَ أَكْثَرَنَا نِسَاءً " ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ التَّقْيِيدُ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ لِإِخْرَاجِ مِثْلِ سُلَيْمَانَ – عَلَيْهِ السَّلامُ – فَإِنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ نِسَاءً .

وَقِيلَ : أَرَادَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ خَيْرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ مَنْ كَانَ أَكْثَرَهَا نِسَاءً مِنْ غَيْرِهِ مِمَّنْ يُسَاوِيهِ فِيمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ الْفَضَائِلِ .

قَالَ الْحَافِظُ : وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ مُرَادَ ابْنِ عَبَّاسٍ بِالْخَيْرِ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَبِالْأُمَّةِ : أَخِصَّاءُ أَصْحَابِهِ ، وَكَأَنَّهُ أَشَارَ إلَى أَنَّ تَرْكَ التَّزْوِيجِ مَرْجُوحٌ إذْ لَوْ كَانَ رَاجِحاً مَا آثَرَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – غَيْرَهُ . اهـ

" نيل الأوطار " (١٢/ ٢٦-٢٧ – ابن الجوزي) وانظر " فتح الباري " (٩/١١٤)

قَالَ النَّوويُّ – رحِمه اللَّهُ تَعالَى - : " وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ " هُوَ بِضَمِّ الْبَاءِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْجِمَاعِ ، وَيُطْلَقُ =

وَرَوَىٰ البُخَارِيُّ (٥٦) ومسلم (١٦٢٨) وغَيْرُهُما عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ – قَالَ له : " إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّىٰ اللُّقْمَةُ تَجْعَلُها في امْرَأَتِكَ "

هذه الأدلَّةُ وغَيْرُهُا تُؤيِّدُ وتُقَوِّي اسْتِحبابَ النِّكاحِ فَضْلاً عن إباحَتِهِ ومَشْروعِيَّتِهِ * .

لكنْ هذا النِّكاحُ الحلالُ قَد يكونُ حراماً مَمنوعاً في بعضِ الصُّوَرِ والأحْوالِ ، ومن ذلكَ :

لو أنَّ رجلاً مُتَزَوِّجاً بامرأةٍ فأرادَ أنْ يَتَزَوَّجَ بأُمِّها : فإنَّ النِّكاحَ هنا مُحَرَّمٌ لأنَّ أمَّ الزَّوجةِ تَحْرُمُ علَىٰ زَوْجِ ابنَتِها علىٰ التَّأبيدِ ، كما قالَ اللَّهُ – تَعالَىٰ – لَمَّا ذَكَرَ المُحَرَّماتِ من النِّساءِ : { وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ } [النِّساء/ ٢٣] .

ولو أرادَ الرَّجُلُ أنْ يَتَزَوَّجَ أخْتَ زوجَتِهِ معها – بأنْ يَجْمَعَ بَيْنَهُما – فإنَّ النِّكاحَ هُنا يَكُونُ مُحَرَّماً ، كما قالَ اللَّهُ – تَعالَىٰ – في آيةِ المُحَرَّماتِ من النِّساءِ : { وَأَنْ تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأخْتَيْنِ إَلا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً } [النِّساء/ ٢٣]

وكذلكَ لو أرادَ الرَّجُلُ أنْ يَجْمَعَ بَيْنَ المَرأةِ وعَمَّتِها أو بَيْنَ المرأةِ وخَالَتِها ، أو يَتَزَوَّجَ عَلَيْها بنتَ أخِيها أو بنتَ أخْتِها = كانَ هذا نكاحاً باطلاً لِما رواه البُخَارِيُّ (٥١٠٩) ومسلم (١٤٠٨) وغَيْرُهُما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ – قَالَ : " لا يُجْمَعُ بَيْنَ المَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا وَلا بَيْنَ المَرْأَةِ وَخَالَتِهَا "

= عَلَى الْفَرْجِ نَفْسِهِ ، وَكِلَاهُمَا تَصِحُّ إِرَادَتُهُ هُنَا ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُبَاحَاتِ تَصِيرُ طَاعَاتٍ بِالنِّيَّاتِ الصَّادِقَاتِ فَالْجِمَاعُ يَكُونُ عِبَادَةً إِذَا نَوَى بِهِ قَضَاءَ حَقِّ الزَّوْجَةِ وَمُعَاشَرَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ – تَعَالَى – بِهِ أَوْ طَلَبَ وَلَدٍ صَالِحٍ أَوْ إِعْفَافَ نَفْسِهِ أَوْ إِعْفَافَ الزَّوْجَةِ وَمَنْعَهُمَا جَمِيعاً مِنَ النَّظَرِ إِلَى حَرَامٍ أَوَ الْفِكْرِ فِيهِ أَوِ الْهَمِّ بِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الصَّالِحَةِ . اهـ " شرح النَّوويُّ على صَحِيح مسلم " (٧/ ٩٢)

* وقَد يكونُ الزَّواجُ في بعضِ الأحوالِ فَرْضاً واجِباً وحَتْماً لازماً وذلكَ إذا يَخْشَى على نفْسِهِ العَنَتَ لِقُوَّةِ شَهْوَتِهِ وشِدَّةِ تَوْقِهِ إلى النَّساءِ مع قدرتِهِ على مَؤونةِ النِّكاحِ ، فَضْلاً عَمَّنْ لا يَنْكَفُّ عن الزِّنا إلَّا بِهِ لعمومِ قَولِهِ – تعالَى – : { واللَّهُ لا يُحِبُّ الفَساد } [البَقَرة/٢٠٥] ، ورَوَى البُخاريُّ (١٩٠٥) ومسلم (١٤٠٠) وغَيْرُهُما عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ – فَقَالَ : " يا مَعْشَرَ الشَّبابِ مَنِ اسْتَطَاعَ منكم البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ " .

قالَ النَّوويُّ – رحمه اللَّهُ - : واخْتَلَفَ العلماءُ في المُرادِ بالباءةِ هنا على قولين يَرجِعان إلى مَعْنىً واحِدٍ ، أَصَحُّهُما أنَّ المُرادَ معناها اللُّغَويُّ وهو الجِماعُ ، فتقديرُهُ : مَنْ اسْتَطَاعَ منكم الجِماعَ لقُدرتِهِ على مُؤَنِهِ - وهي =

وكذلكَ لو أرادَ الرَّجُلُ أنْ يتزوَّجَ امرأةً ما زالَتْ في عِدَّتِها* فإنَّ النِّكاحَ يَقَعُ باطِلاً كذلك .

= مُؤن النِكاح – فليتزوَّجْ ، ومَنْ لَم يَسْتَطِع الجِماعَ لعَجْزِهِ عن مُؤَنِهِ فعليه بالصَّومِ ليَقْطَعَ شَهْوَتَهُ ويَقْطَعَ شَرَّ مَنِيِّهِ كما يَقْطَعُهُ الوِجَاءُ . اهـ " شرح مسلم (٩/ ١٧٢)

قالَ أبو العَبَّاسِ القُرْطُبِيُّ – رحمه اللَّهُ - : المُسْتَطِيعُ الذي يَخافُ الضَّررَ عَلَى نَفْسِهِ ودينِهِ من العُزوبةِ لا يرتَفِعُ عنه ذلكَ إلَّا بالتَّزويجِ ، لا يُخْتَلَفُ في وُجوبِ التَّزويجِ عَلَيْهِ .

وانظر " المحلَّى " (٩/٤٤٠) " فتح الباري " (٩/١١٠) " نيل الأوطار " (١٢/٢٧-٢٨ ابن الجوزي)

* وعِدَدُ النِّساءِ عَلَى النَّحو التَّالِي :

مَنْ ماتَ عنها زوجُها فَعِدَّتُها أربعةُ أشْهُرٍ وعَشَرةُ أيَّامٍ لِقَولِ اللَّهِ – تعالَى - : {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [البقرة/٢٣٤]

ومَنْ فارقها زوجُها بطلاقٍ بعدَ الدُّخُولِ وهى مِنْ ذواتِ الحيضِ فعِدَّتُها ثلاثةُ قُروءٍ لِقولِ اللَّهِ – عَزَّ وجلَ - : { وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ } [البقرة/٢٢٨]

وأمَّا المُطَلَّقةُ قَبْلَ الدُّخُولِ فليسَ لَها عِدَّةٌ لِقَولِ اللَّهِ – تعالَى - : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا } [الأحزاب/٤٩]

فإذا كانتْ المرأةُ كبيرةً آيسةً قَدْ انْقَطَعَ حَيْضُها أو صغيرةً لَم تَحِضْ بَعْدُ فعدَّتُها ثلاثةُ أشْهُرٍ لِقولِ اللَّهِ – تعالَى - : { وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ } [الطَّلاق/٤]

فإذا كانتْ المرأةُ حاملاً فَعِدَّتُها بوضعِ الحَملِ سواءً كانتْ مُفَارَقَةً بالموتِ أو الطَّلاقِ على الرَّاجح ، وهو مَذهبُ جماهيرِ العُلَماءِ لِعُمومِ قولِ اللَّهِ – تَعالَى - : { وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ }[الطَّلاق/٤]

وأخرج البخاريُّ (٥٣١٩) ومُسْلِم (١٤٨٤) وغيرُهما عَنِ ابْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ قالَ : حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ أَبَاهُ كَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الأَرْقَمِ الزُّهْرِيِّ يَأْمُرُهُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى سُبَيْعَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ الأَسْلَمِيَّةِ فَيَسْأَلَهَا عَنْ حَدِيثِهَا وَعَمَّا قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حِينَ اسْتَفْتَتْهُ ، فَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ يُخْبِرُهُ أَنَّ سُبَيْعَةَ أَخْبَرَتْهُ : أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَ سَعْدِ بْنِ خَوْلَةَ وَهُوَ فِي بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ – وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا – فَتُوُفِّيَ عَنْهَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهِيَ حَامِلٌ ، فَلَمْ تَنْشَبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكَكٍ – رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ – فَقَالَ لَهَا : مَا لِي أَرَاكِ مُتَجَمِّلَةً ؟ لَعَلَّكِ تَرْجِينَ النِّكَاحَ ؟ إِنَّكِ وَاللَّهِ مَا أَنْتِ بِنَاكِحٍ حَتَّى تَمُرَّ عَلَيْكِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ ! قَالَتْ سُبَيْعَةُ : فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي حِينَ أَمْسَيْتُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَأَفْتَانِي بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ حِينَ وَضَعْتُ حَمْلِي وَأَمَرَنِي بِالتَّزَوُّجِ إِنْ بَدَا لِي .

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ : فَلاَ أَرَى بَأْساً أَنْ تَتَزَوَّجَ حِينَ وَضَعَتْ وَإِنْ كَانَتْ فِي دَمِهَا غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَقْرَبُهَا زَوْجُهَا حَتَّى تَطْهُرَ .

وأخرَجَ البُخَارِيُّ (٤٩٠٩) ومسلم (١٤٨٥) وغَيْرُهما عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بنِ عَبْدِ الرَّحْمنِ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنهما - وَأَبُو هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه - جَالِسٌ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : أَفْتِنِي فِي امْرَأَةٍ وَلَدَتْ بَعْدَ زَوْجِهَا بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : آخِرُ الأَجَلَيْنِ ! فَقُلْتُ أَنَا : { وَأُولاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ } قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : أَنَا مَعَ ابْنِ أَخِي – يَعْنِي أَبَا سَلَمَةَ – فَأَرْسَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ غُلاَمَهُ كُرَيْباً إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ يَسْأَلُهَا فَقَالَتْ : قُتِلَ =

وأيْضـًا لـو أنَّ رجُـلاً مُـتَـزَوِّجـًا بـأربـعِ نِـسْـوةٍ أرادَ أنْ يَـتَـزَوَّجَ بـخـامِـسـةٍ فـإنَّ هـذا نِـكـاحٌ بـاطِـلٌ ولا يَـصِـحُّ ، إذ إنَّـهُ لا يُـبـاحُ لـمـسـلـمٍ أنْ يَـجْـمَـعَ تَـحْـتَ عِـصْـمَـتِـهِ أكـثـرَ مـن أربـعِ نِـسـوةٍ في نـفـسِ الـوَقْـتِ *

وكـذلـكَ لـو أنَّ رجـلاً عـاشَ مـعَ امـرأةٍ زمـانـًا وأنْـجَـبَ مـنـهـا أولاداً ، ثـمَّ عَـلِـمَ بـعـدَ طُـولِ زمـانٍ أنَّ هـذه الـمَـرأَةَ الـتي في فِـراشِـهِ هـيَ أخْـتُـهُ مـن الـرَّضـاعِ ! فـإنَّـهُ مـن وقْـتِ عِـلْـمِـهِ بـذلـكَ لا يَـحِـلُّ لـهُ أنْ يُـعـاشِـرَهـا مُـعـاشَـرَةَ الأزواجِ ، ويَـفْـسَـخُ الـعَـقْـدُ بـذلـكَ ويُـفَـرَّقُ بـيْـنَـهـمـا !

لـعـمـومِ قـولِ الـلَّـهِ – تَـعـالَـىٰ – في آيـةِ الـمُـحَـرَّمـاتِ مـن الـنِّـسـاءِ : {وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ} [النِّساء/٢٣]

= زَوْجُ سُبَيْعَةَ الأَسْلَمِيَّةِ وَهِي حُبْلَى فَوَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَرْبَعِينَ لَيلَةً ، فَخُطِبَتْ فَأَنْكَحَهَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ – وَكَانَ أَبُو السَّنَابِلِ فِيمَنْ خَطَبَهَا .

* وهذا من العلمِ المَشْهورِ بينَ عُمومِ المُسْلِمينَ ، وقد وَردَ في ذلكَ نُصوصٌ يَشُدُّ بعضُها بعضاً ويُقَوِّي بعضُها بَعضاً أذكُرُ منها حديثَيْن اثْنَيْنِ :

الأوَّلُ أخرجَهُ التِّرْمِذِيُّ (١١٢٨) وابنُ ماجه (١٩٥٣) وأحمد (١٣/٢و١٤و٤٤و٨٣) وأبو يَعلَى (٥٤٣٧) ابنُ حِبَّان (٤١٥٦) والحاكم (١٩٢/٢-١٩٣) ، والبيهقيُّ في " الكُبْرَى " (١٤٩/٧و١٨١) والبَغَوِيُّ (٢٢٨٨) وغَيْرُهُم عَنْ سَالِمِ بنِ عبدِ اللَّهِ بن عُمَرَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ غَيْلَانَ بْنَ سَلَمَةَ الثَّقَفِيَّ أَسْلَمَ وَتَحْتَهُ عَشْرُ نِسْوَةٍ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " اخْتَرْ مِنْهُنَّ أَرْبَعاً " فَلَمَّا كَانَ فِي عَهْدِ عُمَرَ طَلَّقَ نِسَاءَهُ وَقَسَّمَ مَالَهُ بَيْنَ بَنِيهِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ فَلَقِيَهُ فَقَالَ لَهُ : إِنِّي أَظُنُّ الشَّيْطَانَ فِيمَا يَسْتَرِقُ مِنَ السَّمعِ سَمِعَ بِمَوْتِكَ فَقَذَفَهُ فِي نَفْسِكَ وَلَعَلَّكَ أَنْ لَا تَمْكُثَ إِلَّا قَلِيلاً ، وَايْمُ اللَّهِ لَتَرُدَّنَّ نِسَاءَكَ وَلَتَرْجِعَنَّ فِي مَالِكَ أَوْ لَأُوَرِّثُهُنَّ مِنْكَ وَلَآمُرَنَّ بِقَبْرِكَ فَيُرْجَمُ كَمَا رُجِمَ قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ ! وأبو رِغالٍ هذا كان مِن ثَمُودَ ، وكان بالحَرَمِ حين أصابَ قومَهُ الصَّيْحةُ ، فلَمَّا خَرجَ من الحَرَمِ أَصَابَهُ من الهَلاكِ ما أصابَ قومَهُ فدُفِنَ هناكَ ، وقيل : كان أبو رِغالٍ دليلاً للحَبَشَةِ حِينَ تَوَجَّهُوا إلى مَكَّةَ فماتَ في الطَّرِيقِ ، وقيلَ غيرُ ذلك .

والثَّاني : أخْرجه أبو داود (٢٢٤٣) وابنُ ماجه (١٩٥٢) وأبو يَعلَى (٦٨٧٢) والبيهقي في " الكبرى " (١٨٣/٧) وغيْرُهُم عَنِ الْحَارِثِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ : أَسْلَمْتُ وَعِنْدِى ثَمَانُ نِسْوَةٍ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِىِّ – صَلَّى اللَّهُ عليْهِ وسَلَّم – ، فَقَالَ النَّبِىُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم - : « اخْتَرْ مِنْهُنَّ أَرْبَعاً »

وقد نُقِلَ في ذلك الإجماعُ ، فقالَ أبو مُحَمَّدٍ ابنُ حَزمٍ – رحمه اللَّهُ - : واتَّفَقوا علَى أنَّ نِكاحَ أكثرَ مِن أربعِ زَوْجَاتٍ لا يَحِلُّ لأحَدٍ بعدَ رسولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم - . " مراتب الإجماع " (١١٥) وانظر " المحلَّى " (٤٤١/٩)

قَالَ الشَّافِعِيُّ – رحمه اللَّهُ - : وَقَدْ دَلَّت سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْمُبَيِّنَةُ عَنِ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ غيرِ رسول اللَّهِ – صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم - أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِ نِسْوَةٍ .

قالَ ابنُ كثيرٍ – رحمه اللَّهُ – عَقِبَهُ : وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ – مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ إِلَّا مَا حُكِيَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ الشِّيعَةِ أَنَّهُ يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ إِلَى تِسْعٍ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بِلَا حَصْرٍ ! اهـ " تفسير ابن كثير " (٢/ ٢٠٩- طيْبة)

وأخرجَ البُخَاريُّ (٢٦٤٥) ومُسْلِم (١٤٤٧) وغيْرُهُما عن عبد اللَّهِ بنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنهما - : أنَّ النَّبِيَّ – صلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسَلَّم - قال في بنتِ حَمزةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنهما - : " إنَّها لا تَحِلُّ لي ، يَحْرُمُ من الرَّضَاعِ ما يَحْرُمُ من النَّسَبِ ، وإنَّها لابنةُ أخِي مِن الرَّضَاعَةِ "

وأخْرَجَ البخاريُّ (٢٦٤٦) ومسْلِم (١٤٤٤) وغيرُهُما عَنْ عَمْرَةَ بنتِ عبد الرَّحمنِ أَنَّ عَائِشَةَ – رضيَ اللَّهُ عنها – أَخْبَرَتْهَا : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ عِنْدَهَا وَإِنَّهَا سَمِعَتْ صَوْتَ رَجُلٍ يَسْتَأْذِنُ فِي بَيْتِ حَفْصَةَ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا رَجُلٌ يَسْتَأْذِنُ فِي بَيْتِكَ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " أُرَاهُ فُلانًا " لِعَمِّ حَفْصَةَ مِنَ الرَّضَاعَةِ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ كَانَ فُلانٌ حَيًّا - لِعَمِّهَا مِنَ الرَّضَاعَةِ – دَخَلَ عَلَيَّ ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " نَعَمْ ، إِنَّ الرَّضَاعَةَ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الْوِلادَةُ " .

وفي خُصوصِ مسْألتِنا هذه أخرج البخاريُّ في " صَحِيحِه " (٨٨و٢٦٤٠) والنَّسائيُّ في " الكُبْرَىٰ " (٥٨١٤) والحميْديُّ (٥٩٠) وابنُ حِبَّانَ (٤٢١٧و٤٢١٨) والبغويُّ (٢٢٨٦) وغيْرُهُم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابنِ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ الحَارِثِ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – أَنَّهُ تَزَوَّجَ ابْنَةً لأَبِي إِهَابِ بْنِ عَزِيزٍ ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ : قَدْ أَرْضَعْتُ عُقْبَةَ وَالَّتِي تَزَوَّجَ ! فَقَالَ لَهَا عُقْبَةُ : مَا أَعْلَمُ أَنَّكِ أَرْضَعْتِنِي وَلا أَخْبَرْتِنِي ، فَأَرْسَلَ إِلَىٰ آلِ أَبِي إِهَابٍ يَسْأَلُهُمْ ، فَقَالُوا : مَا عَلِمْنَاهَا أَرْضَعَتْ صَاحِبَتَنَا ! فَرَكِبَ إِلَىٰ النَّبِيِّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ – بِالْمَدِينَةِ فَسَأَلَهُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ - : " كَيْفَ وَقَدْ قِيلَ ؟! " فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ وَنَكَحَتْ زَوْجًا غَيْرَهُ .

فدلَّ ذلكَ علىٰ أنَّ هذه الصُّورةَ التي ذكَرناها من صُوَرِ النِّكاحِ المُحَرَّمِ وإنْ كانَ الأَصْلُ في النِّكاحِ الإباحةَ ، واللَّهُ أعلم .

وكذلِكَ ما يُسَمِّيهِ العامَّةُ عندنا بالزَّواجِ العُرْفِيِّ ، وصورتُهُ أنْ يتزوَّجَ الرَّجُلُ المرأةَ بدونِ عِلْمِ أَهْلِها ولا إذنِهم ، ولا يَكونُ لها ولِيٌّ شَرْعيٌّ يُبَاشِرُ هو تزويجَها ، ويكونُ بدونِ إشْهارٍ ولا إعلانٍ ! وهذا النِّكاحُ سَرَىٰ كالنَّارِ في الهَشيمِ في الجَامعاتِ والمدارس الثَّانويَّةِ وحتَّىٰ وَصَلَ إلىٰ البَناتِ في التَّعليمِ المُتَوَسِّطِ في المدارسِ الإعداديَّةِ ! وعِندي من ذلكَ قَصَصٌ تُدْمِي القَلْبِ وإحصائيَّاتٌ تُنْذِرُ بكارثةٍ أخلاقيَّةٍ كبيرةٍ ليْسَ هذا مَحَلَّ ذِكْرِها ومُناقشةِ أسْبابِها ، واللَّهُ المُسْتعانُ .

وهذا الزَّواجُ المُسَمَّىٰ بالزَّواجِ العُرفِي هو زواجٌ فاسدٌ شَرعـًا وعُرفـًا :

أمَّا فَسادُهُ مِنْ جِهةِ الشَّرْعِ : فَلِأنَّ اللَّهَ – تعالَىٰ – شَرَطَ إذنَ الوَلِيِّ لِصِحَّةِ نِكاحِ المَرأةِ ، وكذلكَ اشْتَرَطَ رسولُهُ – صلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – ، ومن جملَةِ الأدلَّةِ عَلَىٰ ذلكَ :

قَولُ اللَّهِ – عزَّ وجلَّ – : { وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }

[البقرة/ ٢٣٢]

فلَمَّا نَهَىٰ اللَّهُ – تَعالَىٰ – الأولياءَ عن عَضْلِ النِّساءِ دلَّ ذلكَ علَىٰ أنَّ إذْنَهُم شَرْطٌ في صِحَّةِ الزَّواجِ

قالَ القُرطبيُّ – رحمه اللَّهُ – : ولولا أَنَّ لَهُ حَقـًّا في الإنْكَاحِ مَا نُهِيَ عَنِ الْعَضْلِ ... وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ هَذَا أَيْضـًا مِنَ الْكِتَابِ قَوْلُهُ : " فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ " وقولُهُ : " وَأَنْكِحُوا الْأَيَامىٰ مِنْكُمْ " فَلَمْ يُخَاطِبْ – تَعَالَىٰ – بِالنِّكَاحِ غَيْرَ الرِّجَالِ ، وَلَوْ كَانَ إِلَىٰ النِّسَاءِ لَذَكَرَهُنَّ . اهـ

وهذه الآيةُ لَها سَبَبُ نُزولٍ أخرجه البُخاريُّ (٥١٣٠) وأبو داود (٢٠٨٩) والنَّسائِيُّ في " الكُبْرَىٰ " (١٠٩٧٤) وغيرُهُم عَنِ الْحَسَنِ قالَ : حَدَّثَنِي مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ قَالَ : كَانَتْ لِي أُخْتٌ تُخْطَبُ إِلَيَّ فَأَتَانِي ابْنُ عَمٍّ لِي فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ ثُمَّ طَلَّقَهَا طَلاقـًا لَهُ رَجْعَةٌ ثُمَّ تَرَكَهَا حَتَّىٰ انْقَضَتْ عِدَّتُهَا ، فَلَمَّا خُطِبَتْ إِلَيَّ أَتَانِي يَخْطُبُهَا ! فَقُلْتُ لهُ : زَوَّجْتُكَ وَأَفْرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ فَطَلَّقْتَهَا ثُمَّ جِئْتَ تَخْطُبُهَا ، لا وَاللَّهِ لا تَعُودُ إِلَيْكَ أَبداً ! وَكَانَ رَجُلاً لا بَأْسَ بِهِ وَكَانَتِ المَرْأَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الآيَةَ : { فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ } فَقُلْتُ : الآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : فَزَوَّجَهَا إِيَّاهُ .

وفي لفظٍ : قالَ : فَقُلْتُ : سَمْعـًا وَطَاعَةً ، كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي وَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ .

وأخرجَ أحْمدُ في " مُسْنَدِهِ " (٦/ ٤٧و٦٦و١٦٥) وأبو داود (٢٠٨٣) والتِّرمذيُّ (١١٠٢) والنَّسائيُّ في " الكُبْرىٰ " (٥٣٩٤) وابن ماجه (١٨٧٩) والدارمي (٢/ ١٣٧) وابن حِبَّان (٤٠٧٤)والحاكمِ في " المسْتدرك " (٢/ ١٦٨) والبَيْهَقِيُّ في " الكبرَىٰ " (٧/ ١٣٨) والبغويُّ في " شرح السُّنَّة " (٢٢٦٢) وغيرُهُم عَنْ عائشةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنها – قالَتْ : قالَ رسُولُ اللَّهِ – صلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – : " أيُّما امْرأةٍ نُكِحَتْ بغَيْرِ إذنِ وَلِيِّها فِنكاحُها باطِلٌ فنكاحُها باطلٌ فنكاحُها باطِلٌ ، فَإِنْ دَخَلَ بِهَا فَالْمَهْرُ لَهَا بِمَا أَصَابَ مِنْهَا ، فَإِنْ تَشَاجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لا وَلِيَّ لَهُ »

وأخـرَجَ ابـنُ مـاجَـه في " سُـنَـنِـهِ " (١٨٨٢) والـبَـزَّار في " مُـسْـنَـدِهِ " (١٠٠٥٨ – الـبـحـر) والـدَّارقُـطْـنـي في " سُـنَـنِـهِ " (٣٥٣٥) والـبَـيْـهَـقِـيُّ في " الـكُـبْـرَىٰ " (٧/ ١١٠) وغـيْـرُهُـم عَـنْ أَبِـي هُـرَيْـرَةَ – رضِـيَ الـلَّـهُ عـنـه – قَـالَ : قَـالَ رَسُـولُ الـلَّـهِ – صَـلَّـىٰ الـلَّـهُ عَـلَـيْـهِ وَسَـلَّـمَ – : « لا تُـزَوِّجُ الْـمَـرْأَةُ الْـمَـرْأَةَ ، وَلا تُـزَوِّجُ الْـمَـرْأَةُ نَـفْـسَـهَـا ، فَـإِنَّ الـزَّانـيَـةَ هِـيَ الَّـتِـي تُـزَوِّجُ نَـفْـسَـهَـا »*

وأمَّـا فَـسادُ هـذا الـزَّواجِ الـعُـرفـيِّ : فـلِأَنَّـهُ يُـخَـالِـفُ عُـرْفَ الـنَّـاسِ ومـا مَـضَـىٰ عَـلَـيْـهِ عَـمـلُـهـم وجـرَتْ بـه عـادتُـهُـم ، فـإنَّـه لـيْـسَ مـن عُـرْفِ الـنَّـاسِ أنْ يُـزَوِّجُـوا بَـنَـاتِـهِـم في الـسِّـرِّ ، وإنَّـمـا يُـعْـلِـنُـونَ ذلـكَ ويَـجْـهَـرونَ بـه ويَـدعُـونَ الـنَّـاسَ إلـيـهِ ، ورُبَّـمـا خـرَجَ بـه الـفَـرَحُ والإعـلانِ إلـىٰ مَـعـاصٍ ومُـنـكـراتٍ !

ولـم يُـعْـهَـدْ في أعـرافِـنـا أنَّ الـبـنـتَ تـتـزوَّجُ بـدونِ عِـلْـمِ أهْـلِـهـا وبـدونِ إذنِـهـم ، بـل هـذا مُـنـكـرٌ في الـعـرفِ ، ويُـعَـيَّـرُ الـرَّجُـلُ إذا فـعـلَـتْ ابـنَـتُـهُ ذلـكَ ، ويَـتَـوارىٰ مـن الـنَّـاسِ خَـشْـيـةَ الـفَـضِـيـحـةِ !

فـدلَّ ذلـك عـلـىٰ أنَّ الـزَّواجَ الـعُـرْفِـيَّ الـذي ذَكَـرتُ صُـورتَـهُ فـاسـدٌ شـرعـًا وعُـرْفـًا مـع أنَّ الأصـلَ في الـنِّـكـاحِ أنَّـهُ حـلالٌ ومُـبـاحٌ أو مُـسْـتَـحَـبٌّ ... إلـىٰ أمـثـلـةٍ كـثـيـرةٍ يـكـونُ أصْـلُ الـفِـعْـلِ حـلالاً لـكـنَّـهُ يُـحَـرَّمُ لـغَـيْـرِهِ .

---

* وقد وَرَدَ في هذا الباب بِضعةَ أحاديثَ أخْرَى تُراجَعُ في مَظانِّها ، وفي الجُملةِ قال النَّوويُّ – رحمه اللَّهُ تَعالَى – : لا يَصِحُّ النِّكاح إلَّا بوَلِيٍّ ، فإنْ عَقَدَت المَرأةُ لم يَصِحَّ . " المجموع شرح المُهَذَّب " (١٦/ ١٤٦)

وقالَ ابنُ قُدامةَ – رحِمه اللَّهُ – : ... النِّكاح لا يَصِحُّ إلَّا بوَلِيٍّ ، ولا تملِكُ المرأةُ تزويجَ نفْسِها ولا غيرِها ، ولا توكيلَ غيرِ ولِيِّها في تزويجها ، فإنْ فعلَتْ لم يَصِحَّ النِّكاحُ ، رُوِيَ هذا عن عمر وعليٍّ وابن مسعودٍ وابن عَبَّاسٍ وأبي هُريرةَ وعائشةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنهم – وإليه ذهبَ سعيدُ بن المُسَيِّبِ و الحَسَنُ وعمر بن عبد العزيز وجابر بن زيد والثَّوري وابنُ أبي ليلى وابن شبرُمة وابن المُباركِ وعُبَيْدُ اللَّهِ العنبريُّ والشَّافعي وإسْحاقُ وأبو عُبَيْد ... إلخ " المُغني " (٧/ ٣٣٧)

وقالَ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ – رحمه اللَّهُ تعالَى – : وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ في اشْتِرَاطِ الْوَلِيِّ في النِّكَاحِ : فَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى ذَلِكَ ، وَقَالُوا : لا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا أَصْلاً وَاحْتَجُّوا بِالْأَحَادِيثِ الْمَذْكُورَةِ ... وَذكَر ابنُ الْمُنْذِرِ أَنَّهُ لا يُعْرَفُ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ خِلافُ ذَلِكَ ... إلخ . " فتح الباري " لابْن حَجَرٍ (٩/ ١٨٧)

إذا عَلِمْتَ ذلكَ - عَلَّمكَ اللَّهُ الخَيْرَ وهَداكَ إِلَيْهِ - فاعْلَمْ أنَّ الظُّلمَ من القِسْمِ الأوَّلِ - وهو المُحَرَّمُ لِذاتِهِ - وأنَّ اللَّهَ - تعالَىٰ - حَرَّمه علىٰ كُلِّ الخَلْقِ وفي كُلِّ الشَّرائعِ والكُتُبِ التي أنزلَها وعلىٰ ألسنةِ جميعِ الأنبياءِ والرُّسُلِ الذينَ أرْسَلَهم ، حتَّىٰ حَرَّمَهُ - سبْحانَهُ وبحَمدِهِ - علَىٰ نَفْسِهِ مَعَ قُدْرتِهِ عليهِ ، ومع أنَّ الخَلْقَ جميعًا عَبيدُهُ وصَنْعَتُهُ وهو - سبحانَهُ - يتَصَرَّفُ فيهم بما يَشاءُ كما قالَ تعالَىٰ - : { إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ } [هود/ ١٠٧] ، وهو - سُبْحانَهُ - لا يَسْألُهُ أحَدٌ عن فِعْلِهِ كما قالَ - تعالَىٰ - : { لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } [الأنبياء/ ٢٣]

وهو - سبحانَهُ - لا يُعَقِّبُ أحدٌ علىٰ حُكْمِهِ كما قالَ - تَعالَىٰ - : { وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [الرَّعْد/ ٤١] = ومع ذلكَ فإنَّ اللَّهَ - سُبْحانَهُ - حَرَّمَ علَىٰ نَفْسِهِ الظُّلْمَ ، وبرَّأَ نفسَهُ مِنْ مُجَرَّدِ إرادةِ الظُّلمِ ، ونَزَّهَ نَفسَهُ عنه لِقُبْحِهِ وفُحْشِهِ ، ولأنَّهُ من النَّقْصِ الذي لا مَدْخَلَ لهُ في أسماءِ اللَّهِ - تعالَىٰ - وصِفاتِهِ وأفعالِهِ ، فإنَّ أسماءَهُ كُلَّها حُسْنىٰ ، وصِفاتِهِ كُلَّها عُلْيا بلَغَتْ في الحُسْنِ والكَمالِ مُنْتَهاهُ ، وأفعالَهُ كُلَّها مبناها علىٰ العلمِ والحِكمةِ والعدْلِ والرَّحْمةِ ، كما في هذا الحديثِ الذي مَعَنا وفي آياتٍ أخْرَىٰ كثيرةٍ من كِتابِهِ :

قال اللَّهُ - عزَّوجلَّ - : { وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ } [غافر/٣١]

وقالَ - تعالَى - : { وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ } [آل عمران/١٠٨]

وقالَ - تعالَى - : { وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً } [الكهف/٤٩]

وقالَ - تعالَى - : { وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } [فُصِّلَت/٤٦]

وقالَ - تعالَى - : { ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ } [الشُّعراء/٢٠٩]

وقالَ - تعالَى - : { مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } [ق/٢٩]

وقالَ - تعالَى - : { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } [آل عمران/١٨٢]

وقالَ - تعالَى - : { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ } [فُصِّلَت/٤٦]

وقالَ - تعالَى - : { إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً } [النِّساء/٤٠]

---

* ومن جملةِ عَقائدِ أهل السُّنَّة والجماعةِ التي يُخَالِفُهُم فيها المُعتزلةُ ومنْ لَفَّ لَفَّهُم : أنَّ اللَّهَ - تَعالَى - لا يَجِبُ عَلَيْهِ شيءٌ ولا يَحْرُمُ عليهِ شيءٌ استحقاقاً عليه للعِبادِ ، وإنَّما هو - سُبحانَهُ - يُوجِبُ علَى نَفْسِهِ أشْياءَ =

وأخرج الإمامُ أحمد في " مُسْنَدِهِ " (٥/ ١٨٢) وعبد بن حُمَيْدٍ (٢٤٧) وابنُ أبي عاصمٍ في " السُّنَّة " (٢٤٥) وأبو داود (٤٦٩٩) وابنُ ماجه (٧٧) وابن حِبَّانَ (٧٢٧) وغيْرُهُم عن ابن الدَّيْلَميِّ – وهو عبد اللَّهِ بنُ فيْروزٍ – قال : وَقَعَ في نَفْسِي شيءٌ من هذا القَدَرِ خَشِيتُ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيَّ دِينِي وَأَمْرِي ، فَلَقِيتُ أُبَيَّ بنَ كَعْبٍ فقُلْتُ : يا أبا المُنْذِرِ إنَّهُ قد وقع في نفسي شيءٌ من هذا القَدَرِ خَشِيتُ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيَّ دِينِي وَأَمْرِي ، فحَدِّثْني بشَيءٍ لَعَلَّ اللَّهَ أنْ يَنْفَعَني به ، ويَذْهَبَ هذا مِن قَلْبي . فَقالَ : لو أنَّ اللَّهَ – تَعالَىٰ – عَذَّبَ أهْلَ سَمَواتِهِ وأهْلَ أرْضِهِ لَعَذَّبَهُم وهو غَيْرُ ظالمٍ لَهُم ، ولو رَحِمَهُم كانتْ رحمَتُهُ لهم خَيْراً من أعْمَالِهِم ، ولو كانَ لكَ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَباً تُنْفِقُهُ في سبيل اللَّهِ – عزَّ وجَلَّ – ما قَبِلَهُ اللَّهُ منكَ حَتَّىٰ تُؤمِنَ بالقَدَرِ فَتَعْلَمَ أنَّ ما أصَابَكَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وما أخطأكَ لم يكن ليُصِيبكَ ، وأنَّكَ إنْ مُتَّ علىٰ غَيْرِ ذلكَ لدَخَلْتَ النَّارَ ....

= ويُحَرِّمُ على نَفْسِهِ أشْياءَ تَفَضُّلاً منه علَى عِبَادِهِ ، كما قالَ القائلُ في ذلكَ :

ما للعِبادِ عليه حَقٌّ واجِبُ *** كَلَّا ولا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أو نُعِّموا *** فبفَضْلِهِ وهو الكريمُ الواسِعُ

وفي هذا السِّيَاقِ قال ابنُ القَيِمِ – رحمه اللَّهُ تعالَى – :

وهو الشَّكُورُ فَلَنْ يُضَيِّعَ سَعْيَهُم *** لَكِنْ يُضَاعِفُهُ بلا حُسْبَانِ
ما للعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ واجِب *** هُو أوجَبَ الأجْرَ العَظِيمَ الشَّانِ
كَلَّا ولا عَمَلٌ لَدَيهِ ضَائِع *** إنْ كانَ بالإخْلاصِ والإحْسَانِ
إنْ عُذِّبُوا فبِعَدْلِهِ ، أو نُعِّموا *** فبِفَضْلِهِ ، والحَمْدُ للرَّحْمَنِ

فمِمَّا حَرَّمه اللَّهُ – تعالَى – على نَفْسِهِ الظُّلمُ كما سَبَقَ في النُّصوصِ أعلاهُ ، ومِمَّا أوجَبَهُ اللَّهُ – تَعالَى – علَى نفْسِهِ نَصْرُ عِبادِهِ المُؤمنينَ الذينَ أقاموا دينَهُ وحَقَّقوا العُبوديَّةَ لهُ ، كما في قَولِهِ – تَعالَى – : { وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ } [الرُّوم/٤٧] ، ووكذلكَ أنَّه لا يُعَذِّبُ من عَبَدَهُ لا يُشْرِكُ به شيئاً كما أخرجَهُ البُخَارِيُّ (٥٩٦٧) ومسلم (٣٠) وغيرُهُما عن مُعاذِ بنِ جَبَلٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قالَ : كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ – عَلَى حِمارٍ اسمُهُ عُفَيْرٌ لَيسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مُؤَخِرَةُ الرَّحْلِ ، فَقَالَ : " يَا مُعَاذُ " قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : " يَا مُعَاذُ " قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : " يَا مُعَاذُ " قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ، قَالَ : " هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ " قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : " حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً " ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : " يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ " قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ، فَقَالَ : " هَلْ تَدْرِي ما حَقُّ العِبادِ على اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذلكَ ؟ " قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : " حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ " . والشَّاهدُ منه : أنَّ النَّبيَّ – صَلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم – نَسَبَ ذلكَ حقَّاً للعبادِ بإحْقاقِ اللَّهِ – تَعالَى – وإيجابِهِ على نفسِهِ لا لأنَّ العِبَادَ أو جَبُوا عَلَيْهِ ذلكَ أو أنَّهم يَسْتَحِقُّونَ ذلكَ بذواتِهِم . وانظر : " بدائع الفوائد " (٢/٦٤٩ – عالم الفوائد) " شرح الطَّحاويَّة " (١/٢٩٦ – الرِّسالة)

... ولا عَلَيْكَ أنْ تأتِيَ أخي عَبْدَ اللَّهِ بنَ مَسْعودٍ فتَسْألَهُ ، قال : فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ فَسَأَلْتُهُ فَذَكَرَ مِثْلَ مَا قَالَ أُبَيٌّ ، وَقَالَ لِي : وَلا عَلَيْكَ أَنْ تَأْتِيَ حُذَيْفَةَ ، فَأَتَيْتُ حُذَيْفَةَ فَسَأَلْتُهُ ، فَقَالَ مِثْلَ مَا قَالا ، وَقَالَ : ائْتِ زيْدَ بْنَ ثابتٍ فَاسْأَلْهُ ، فَأَتَيْتُ زيْدَ بْنَ ثابتٍ فَسَأَلْتُهُ ، فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صلَّىٰ اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ – يَقُولُ : « لوْ أَنَّ اللَّهَ عذَّبَ أهْلَ سَمَوَاتِهِ وأهْلَ أرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خيْراً لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ لَكَ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا – أوْ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا – تُنْفِقُهُ في سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ مِنْكَ حتَّىٰ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ ، فَتَعْلَمَ أنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، وَأَنَّكَ إِنْ مُتَّ عَلَىٰ غيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ »

والظُّلمُ – أيُّها الإخوةُ – لا يَحِلُّ لأحَدٍ قَطُّ لا ابتداءً ولا وسيلةً ، فإنَّ من قواعدِ أهل العلمِ والدِّينَ أنَّ الوسائلَ لها أحكامُ المَقاصِدِ حِلّاً وحُرمةً وإباحةً ومنعًا ، وأنَّ الغايةَ المُباحةَ المَحْمودةَ لا تُبَرِّرُ الوسيلةَ الممنوعةَ المَذمومةَ ، وإنَّما هذا من مَسالِكِ اليَهودِ وقواعِدِهم ، وتَبَنَّاها وقَرَّرها ميكافيلِّي ، وأكثرُ مَنْ يُمارِسُها في العالِمِ اليَومِ مَنْ قَلَّ دينُهُم أو انْسَلَخُوا من دينِهم فلا يُؤمنونَ إيمانًا عَمَلِيًّا بإلهٍ ولا باليَوْمِ الآخِرِ ولا بالحِسابِ والجَزاءِ !

وأصْلُ هذه القاعدةِ المشؤومةِ " الغاية تُبَرِّرُ الوسيلة " أنَّ الكُتَّابَ السِّياسِيِّينَ مُنْذُ القِدَمِ ومنهم فلاسفةُ الإغريقِ كأفلاطونَ وأرسطو وغيرِهما = كانُوا يَبْحَثُونَ عن الغَايَةِ من الدَّوْلَةِ والهَدَفِ من وجودِهَا ، فرأىٰ بعْضُهُم أنَّ غَايَتَها هِيَ تَحْقِيقُ المُثُلِ العُلْيا السَّامِيةِ ، ولهذا جاءَ اشْتِراطُهم أنْ يكونَ الحاكمُ فيلسوفًا ! بَيْنَما ذهَبَ آخَرون إلىٰ أنَّ الغايةَ من الدَّولَةِ هِيَ تَنْفِيذُ القانُونِ الإلَهِي أو القَانُونِ " الطَّبيعي " كما يُسَمُّونَهُ !

ولكنْ مِيكافيلِّي ذو النَّزْعَةِ العَمَلِيَّةِ ذهَبَ إلىٰ أنَّ الدَّوْلَةَ غايةٌ بذاتها ، والقبضَ عَلَىٰ زِمَامِ الحُكمِ هَدَفٌ برأسِهِ ، وفي سَبِيلِ تَحْقيقِ هَذهِ الغايةِ لا مانعَ من سُلُوكِ أيِّ سَبيلٍ يُوصِلُ إليها واسْتِخْدامِ أيَّةِ وسِيلةٍ من شأنِها تسهيلُ ذلك مهما وُصِفَتْ تلك السُّبُلُ والوسائلُ بأنَّها غَيْرُ أخْلاقِيَّةٍ ومَهْمَا تَنَافَتْ مع الدِّينِ ومَنْهَجِهِ في السُّلوكِ .

فالمِعْيَارُ الذي تُقاسُ به صَلاحِيَّةُ الوَسِيلةِ أو عَدَمُها ليس مِعْياراً " موضوعيًّا عادِلاً " بل هو معيارٌ ذاتِيٌّ شَخْصيٌّ مَصْلَحيٌّ ، وللسِّياسِيِّ وحْدَهُ الحَقُّ في الحُكْم بصِحَّةِ أيِّ لَونٍ من ألوانِ

السُّلوكِ أو خَطَئِهِ وبُطْلانِهِ ! تلكَ صُورةٌ مُوجَزةٌ للميكافيلِّليَّةِ كما ظَهرت في عصر النَّهضة .

ولَقَدْ رأيْنا في عَصْرنا وواقِعنا أَنَّهُ ما من حزبٍ أو جَماعَةٍ تَجْعَلُ السُّلْطَةَ والحُكمَ غايةً وهَدَفاً إلَّا داسَ علىٰ رِقَابِ غيرِهِ ورَكِبَ علىٰ أكتافِهم لِيَصِلَ إلَىٰ هَدَفِهِ ، ويَسْلُكُ كُلَّ السُّبُل اللا أخلاقِيَّةِ لتحصيلِ مصالِحهِ والوصول إلىٰ أهدافِهِ في الحُكم والسُّلْطانِ ، مهما كانَت الوَسائلُ تُخالِفُ المبادئَ والقِيَمَ حَتَّىٰ التي قامت علَيْها الجماعةُ والحِزبُ وراحت كُلُّ المَبادئِ في مَهَبِّ الرِّيحِ !

وظَلَّتْ كَلِمَةُ " ميكافيلِّلي " أَشْنعَ وصْفٍ يُمْكِنُ أنْ يُطْلَقَ عَلَىٰ إنْسانٍ مُتَحَلِّلٍ مِن قُيودِ الدِّينِ وأحكامِهِ والخُلُقِ وتعاليمِهِ ومُتَجَرِّدٍ من الإنْسانِيَّةِ والضَّمير .

وخذ مثالاً عَلَىٰ ذلكَ من حالِ بني إسْرائيلَ ذكَرَهُ اللَّهُ – تعالَىٰ – في كتابِهِ حيْثُ قالَ – عزَّ من قائلٍ – : { وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [آل عِمْران/٧٥]

عن الحَسَنِ – رحِمه اللَّهُ – في قَوْلِهِ – تَعالَىٰ – : { ومِنْهُم مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بدينارٍ لا يُؤدِّهِ إليكَ } قال : كانت تكونُ دُيُونٌ لأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ عليهم فقالوا : ليس علينا سَبِيلٌ في أمْوالِ أصْحابِ مُحَمَّدٍ إنْ أمْسكناها .

وعَنْ قَتادةَ في قَولِه – تَعالَىٰ – : { ذلك بأنَّهُم قالوا لَيْس علينا في الأُمِّيِّين سَبيلٌ } قال : قالت اليَهُودُ : لَيْسَ عَلَيْنا فِيما أَصَبْنا من أمْوالِ العَرَبِ سَبيلٌ .

وعَن السُّدِّيِّ قالَ : يُقَالُ له : ما بالُكَ لا تُؤدِّي أمَانَتَكَ ؟ فيقولُ : ليس علينا حَرَجٌ في أموالِ العَربِ قد أحَلَّها اللَّهُ لَنَا !

فانظر كيفَ فَسَدَتْ أفْعالُهم ومُعاملاتُهم لَمَّا فَسَدَتْ عَقائدُهُم ، واسْتَحَلُّوا أموالَ الخَلْقِ بهذه القاعدةِ الإجراميَّةِ " الغاية تُبَرِّرُ الوَسيلةَ " !

أمَّا نَحنُ – مَعاشِرَ المُسْلِمينَ – فعندنا أنَّ الغايةَ لا تُبَرِّرُ الوسيلةُ ، بل الوسائلُ إلَىٰ المُباحِ لابدَّ أنْ تَكونَ مُباحةً ، والوسيلةُ للمَشْروعِ لابدَّ أنْ تكونَ مَشْروعةً كذلكَ ، والغايةُ المحمودةُ لا تُبَرِّرُ الوسيلةَ المذمومةَ ، والنَّوايا الصَّالحةُ لا تُبَرِّرُ الأعمالَ الفاسدَةَ ، ولنضربْ علىٰ ذلكَ أمْثِلةً :

فمن ذلكَ : أنَّ مَحَبَّةَ النَّبيِّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – وتَعظِيمَهُ وتوقيرَهُ لا يُبيحُ الاحتفالَ بمولِدِهِ كما يَفْعَلُهُ بَعضُ مُبْتَدِعةُ زمانِنا ، فشرفُ هذهِ الغايةِ لا يُبَرِّرُ هذه الوسيلةَ المُبْتَدعةَ !

ومن ذلكَ أيْضـًا : أنَّ لـو أرادَ الإنْسانُ أنْ يَقْضِيَ الشَّهْوةَ الجِنْسِيَّةَ التي تَجْري في عُروقِهِ ويُعاني مِنْ فَوَرانَها فَزَنَا بامرأةٍ بِرِضَاهَا أو غَصْبـًا لتصْريفِ تِلْكَ الشَّهْوةِ التي هِيَ فِطْرَةٌ في نُفُوسِهِم = كانَ هذا حَرامـًا في الشَّرْعِ وإنْ كانَتْ الغايةُ مُباحةً ، فإنَّ الغايةَ لا تُبَرِّرُ الوسيلةَ .

وإنَّما لتحصيلِ تِلْكَ المَصْلَحةِ وتَحْقِيقِ تلْكَ الغايةِ وتَصْريفِ تِلْكَ الشَّهْوةِ شَرَعَ اللَّهُ – عَزَّ وجلَّ – طَريقَةً شَرِيفَةً وقَناةً نَظِيفةً وسَبيلاً طاهِرةً ووسيلةً مُباحةً وكريمةً لِتحقيقِ تِلْكَ الغايةِ وتَحْصِيلِ تِلْكَ المَصْلَحَةِ وتَصْريفِ تِلْكَ الشَّهْوةِ .

وأيْضـًا : لو أرادَ إنْسانٌ أنْ يُحَصِّلَ المالَ ويكونَ غَنِيًّا – وهذه غايةٌ مُباحةٌ إذا أدَّىٰ حَقَّ اللَّهِ في مالِهِ ، ونِعمَ المالُ الصَّالِحُ للعَبْدِ الصَّالِحِ – فهلْ لهُ أنْ يَسْرِقَ أموالَ النَّاسِ أو المالَ العامَّ لكي يكونَ غَنِيًّا ؟! هل له أنْ يَنْهَبَ أموالَ الخَلْقِ أو أنْ يَقْبَلَ الرِّشوةَ أو أنْ يَغُشَّ في تِجارتِهِ أو يَتَعامَلَ بالرِّبا جَريـًا وَراءَ الرِّبحِ السَّريعِ لتحقيقِ تلكَ الغايَةِ وتَحصيلِ تلكَ المُصْلَحةِ ؟!

والجوابُ : لا ، بلْ يَلْزَمُهُ أنْ يَضْرِبَ في الأرضِ وأنْ يَسْلُكَ السُّبُلَ الحلالَ لتحصيلِ المالِ والثَّروةِ ... وهكذا في كُلِّ الوسائلِ مع المَقاصِدِ .

وهكذا الظُّلمُ لا يَحِلُّ لأحدٍ أنْ يُبَاشِرَهُ ابتِداءً وأنْ يَكُونَ مَقْصودُهُ قَهْرَ النَّاسِ وظُلْمَهُم ، ولا يَحِلُّ له أنْ يَسْتَعْمِلَ الظُّلمَ كوسيلةٍ للوصولِ إلىٰ غايةٍ محمودةٍ كنهبِ أموالِ النَّاسِ الأغنياءِ وفرْضِ المُكوسِ عَلَيْهِم وغصْبِ أملاكِهم وتأميمِها لصالحِ الدَّولةِ بزَعْمِ تَحقيقِ العدالةِ الاجتماعيَّةِ بينَ طَبَقاتِ الشَّعْبِ مع إهمالِ الزَّكاةِ والوسائلِ الشَّرعيَّةِ !

وكتكميمِ أفواهِ النَّاسِ وإسْكاتِ كُلِّ صوتٍ مُخالِفٍ وتَحْريمِ كلمةِ الحقِّ علىٰ النَّاسِ وإرهابِهِم واتِّهامِ كُلِّ مُخالِفٍ بالتَّطَرُّفِ والإرْهَابِ ، وتلفيقِ التُّهَمِ الجاهزةِ لكلِّ مُمانعٍ أو مُعارضٍ تَحْتَ دَعْوىٰ حِفْظِ الأمنِ العامِّ أو عَدَمِ شَقِّ الصَّفِّ الوَطَني ! هذا مع إطلاقِ كَافَّةِ القنواتِ المسعورةِ وتَمكينِ أصْحابِ الأقلامِ المسمومةِ والأفواهِ المَحْمومةِ مِنْ تمزيقِ كلِّ الصُّفوفِ وإثارةِ كُلِّ الفِتَنِ واتِّهامِ البُرَءاءِ بكلِّ مُصِيبةٍ وجريمةٍ ، وليس لك حقٌّ في الاعتراضِ أو إبْداءِ الرَّأيِ أو الرَّدِّ ! وكسَفْكِ مئاتِ أو ألوفِ الدِّماءِ المَعصومةِ وهدم المنازل والمساجدِ وإحراقِها والاعتقالاتِ بالجُملةِ تَحْتَ دَعْوَىٰ : إنَّهم خلايا نائمةٌ ! أو ينتمونَ لتنظيماتٍ سِرِّيَّةٍ أو مَحْظورةٍ ! أو : نَظُنُّ أنَّهم كانوا يَنوونَ القِيَامَ بأعمالِ عُنْفٍ أوتَخْريبٍ ! أو الحَرْبِ علىٰ الإرْهابِ ! ... وهكذا

والظُّلمُ مَعصِيةٌ شؤمٌ ، وهو بِضاعةُ الهَلْكَي من الخلْقِ ورؤوسُ أموالِ المفالِيسِ من النَّاسِ :

أخرجَ مسْلِمٌ في " صَحيحِه " (٢٥٨١) والتِّرْمِذِيُّ (٤/ ٦١٣) وأحْمد (٢/ ٣٠٣و٣٣٤و٣٧١) وابنُ حِبَّانَ (٤٤١١و٧٣٥٩) وأبو يَعلَىٰ (٦٤٩٩) وغَيْرُهُم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : « أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ ؟ »

قَالُوا : المُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : « المُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا = فَيُعْطَىٰ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ " .

فهذا المَشؤومُ لم يَكُنْ مُهْملاً في الدُّنْيا ولم يَكُنْ مُضَيِّعًا لعِباداتِهِ لكنَّهُ كانَ مُضَيِّعًا لحسناتِهِ كانَ يُصَلِّىٰ كعامَّةِ المُؤمنينَ وكانَ يَصُومُ كَصَومِهِم ، وكانَ يُنْفِقُ من حِلِّ مالِهِ لَمَّا بَخِلَ النَّاسِ بأموالِهِم ... وكانَ وكانَ ، ولكِنَّهُ أيْضًا كانَ يَعِيشُ فَوقَ رِقابِ الخَلْقِ لا يَمْنَعُهُ من ظُلْمِهِم مانعٌ ولا يَرْدَعُهُ عن أذِيَّتِهِم رادعٌ ، ويتجَرَّأُ علىٰ ضَرْبِهِم وسفكِ دمائِهِم والعُدْوانِ علىٰ حَياتِهِم وحُرِّيَّاتِهِم ويَتطاوَلُ علىٰ أموالِهِم وأعراضِهِم بلا وازعٍ من دينٍ أو خُلُقٍ أو ضَميرٍ !

فيأتي هذا المشؤومُ يَومَ القِيامةِ بأعمالِهِ كُلِّها : بِحَسَناتِهِ وسَيِّئاتِهِ ، بعِباداتِهِ ومَظالِمِ النَّاسِ التي عِندَهُ فيُوقَفُ أمامَ مَنْ ظَلَمَهم ، ويُوَفِّي اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ من هَذا الظَّالمِ المُتَغَطْرِسِ ، ويأخُذُ النَّاسُ مِن حَسناتِهِ حَتَّىٰ يَسْتَوفونَ حُقوقَهم وتشْتَفِي صُدورُهُم ، فإذا فَنِيَتْ حَسناتُهُ وانْتَهَتْ قَبْلَ أنْ يُؤَدِّيَ كُلَّ ما عَلَيْهِ ولم تَتَبَقَّ لهُ حَسَنةٌ يَأخُذها النَّاسُ أُخِذَ مِن سَيِّئاتِهِم فَطُرِحَتْ علىٰ ظَهْرِهِ ، وأُخِذَ من خَطاياهُم ومعاصِيهِم ووُضِعَتْ في مِيزانِ سَيِّئاتِهِ !

فيُعَذَّبُ علىٰ سَيِّئةٍ لم يَفْعَلْها بنفْسِهِ ، ويُحاسَبُ علىٰ شَهْوةٍ مُحَرَّمَةٍ فَعَلَها غَيْرُهُ ، وأخْسَرُ النَّاسِ صفقةً مَن باعَ آخِرَتَهُ بدُنْيا غَيْرِهِ ، واللَّهُ المُستعانُ .

وما مثالُهُ إلَّا كالتَّاجِرِ الفاشِلِ الذي في يَدِهِ مائةُ مُليونٍ وعليهِ ديونٌ للنَّاسِ مئاتُ الملايينَ !

فالذي يَنْظُرُ إلَىٰ ظاهِرِ حالِهِ يَحْسَبُهُ غَنِيًّا ، والذي يَطَّلِعُ علَىٰ حقيقةِ حالِهِ يعلمُ أنَّهُ من جملةِ المَفاليسِ ، وأنَّ الأموالَ التي في يَدِهِ ليْسَتْ مُلْكًا لهُ علىٰ الحَقِيقةِ وإنَّما هي أموالُ النَّاسِ !

والظُّلمُ في نُصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ يَنْقَسِمُ إلىٰ أقسامٌ ثلاثةٌ ، وهي :

القِسْمُ الأَوَّلُ : الشِّرْكُ باللَّهِ – تعالَىٰ – والكُفْرُ بهِ .

والقِسْمُ الثَّاني : هو ظُلْمُ العِبادِ وإضْرارُ بَعْضِهم لبعضٍ وعُدْوانُ بعضِهم علىٰ بعضٍ في النُّفُوسِ أو الأعراضِ أو الأموالِ .

والقِسْمُ الثَّالثُ : ظُلْمُ الإنسانِ لنفسِهِ وإسْرافُهُ علَيْها أو إهْمالُهُ وإضْرارُهُ بها .

وهذه الأقسامُ الثَّلاثةُ مأخوذةٌ من استقراءِ نُصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ والسَّبْرِ والتَّقْسيمِ ، وقد وَردتْ بعضُ النُّصوصٌ التي جَمعتْ هذه الأنواعَ الثَّلاثةَ في سِيَاقٍ واحِدٍ ، ومن ذلكَ :

ما أخرجه الإمامُ أحمدُ في " مُسْنَدِهِ " (٦/ ٢٤٠) والحاكِمُ في " المسْتدْرك " (٤/ ٥٧٥) وأبو نُعَيْم في " أخبار أصْبَهَان " (٢/ ٢) والبيهقِيُّ في " الشُّعَب " (٧٤٧٣و٧٤٧٤) والدَّيْنَوريُّ في " المجالَسَة " (٦) وغيْرُهُم عن يَزيدَ بن بابَنُوسٍ عن عائشةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنها – قالتْ : قالَ رسولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسَلَّم – : " الدَّواوينُ عندَ اللَّهِ – عَزَّ وجَلَّ – ثلاثةٌ : ديوانٌ لا يَعْبَأ اللَّهُ به شَيئًا ، وديوانٌ لا يَتْرُكُ اللَّهُ منه شَيئًا ، وديوانٌ لا يَغْفِرُهُ اللَّهُ أبداً ، فَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لا يَغْفِرُهُ اللَّهُ – عَزَّ وجَلَّ – فَالشِّرْكُ بِاللَّهِ ، قَالَ اللَّهُ – عَزَّ وَجَلَّ – : {إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ} [المائدة/ ٧٢] وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لا يَعْبَأُ اللَّهُ بِهِ شَيْئًا فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ مِنْ صَوْمِ يَوْمٍ تَرَكَهُ أَوْ صَلَاةٍ تَرَكَهَا = فَإِنَّ اللَّهَ – عَزَّ وَجَلَّ – يَغْفِرُ ذَلِكَ وَيَتَجَاوَزُ إِنْ شَاءَ ، وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لا يَتْرُكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ، الْقِصَاصُ لا مَحَالَةَ " .

أي : أنواعُ الذُّنُوبِ المُحْصاةِ عَلَىٰ العِبَادِ المُدَوَّنَةِ في الصُّحُفِ تنقَسِمُ إلىٰ هَذِهِ الأقسامِ الثَّلاثةِ .

وهذا الحديثُ وإنْ كانَ إسْنادُهُ ضَعِيفًا* إلَّا أنَّ المَعانيَ التي اشْتَمَلَ عَلَيْها معانٍ صحيحةٌ وثابتةٌ في نُصوصٍ أخْرَىٰ كثيرةٍ كما سيأتي بَيانُهُ – إنْ شاءَ اللَّهُ تَعالَىٰ – .

---

* إسْنادُهُ ضعيف لضَعفِ صَدقةَ بن مُوسى الدَّقِيقيِّ أبي المغيرةِ – أو أبو مُحَمَّدٍ – السُّلَميّ البَصْريّ فإنَّ له أوهاماً وقد انفردَ بروايتِهِ ، ويزيدُ بنُ بابَنُوس مقْبُولٌ الحديثِ أيْ : إذا تُوبِعْ ، وهو هنا لم يُتابَعْ على روايَتِهِ .

فأمَّا القِسْمُ الأوَّلُ من أقْسامِ الظُّلْمِ : فهو الشِّرْكُ باللَّهِ –عزَّوجلَّ– والكُفْرُ بدينِهِ وشرْعِهِ ، وقد جاءَ وصفُ الشِّرْكِ بأنَّهُ ظُلمٌ وتَسْمِيَتُهُ بذلكَ في عِدَّةِ آياتٍ من القُرْآنِ ، ووَصَفَ اللَّهُ –تعالى– الكُفرَ وأهْلَهُ بأنَّهُم هُم الظَّالِمون في آياتٍ أخْرَىٰ مِنْ كِتابِهِ ، ومن ذلكَ :

قالَ اللَّهُ – تعالَى – : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البَقرة/٢٥٤]

وهذا أسْلوبُ حَصْرٍ ، وإنَّما حَصَرَ الظُّلمَ في الكافرينَ لأنَّهُ ليْسَ هناكَ ظُلْمٌ أشدَّ ولا أعظَمَ ولا أشْنَعَ ولا أقبَحَ من الكُفْرِ ، لأنَّ فيهِ مُكابرةً وجُحُوداً للواقِعِ وأنَّ الإنْسانَ مَخلوقٌ بعدَ أنْ لم يَكُنْ ! وفيهِ إنْكارٌ لأعظمِ الحُقوقِ وأوجَبِها وهو حَقُّ الخالقِ العَظِيمِ والرَّبِّ الكريمِ –سُبْحانَهُ وبحَمْدِهِ– ! وفيهِ مَسْخٌ للفِطَرِ السَّليمةِ ومُعارضةٌ للعقولِ المُسْتَقيمةِ الهاديةِ إلىٰ اللَّهِ –تعالَى– !

وقالَ اللَّهُ – تعالَى – : {وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ} [يونس/١٠٦]

فالظُّلمُ هنا أيْضاً مَعناهُ الشِّرْكُ ، ودُعاءُ غيرِ اللَّهِ – تَعالَىٰ – إشْراكٌ به – سُبْحانَهُ – فنَهَيَ عنه .

وقالَ اللَّهُ – تعالَى – : {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لُقمان/١٣]

فوَصَفَ اللَّهُ – تعالَىٰ – الشِّرْكَ بأنَّهُ ظُلْمٌ ، بل بأنَّهُ ظُلْمٌ عَظيمٌ لشناعَتِهِ وأنَّهُ سَقْفُ الجرائمِ !

وقالَ اللَّهُ – تعالَى – : {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [الأنعام/٨٢]

وهذه الآيةُ مِمَّا اشْتَبَهَ مَعناهُ علىٰ جَماعةٍ من الصَّحابةِ ، كما أخْرَجَهُ البخاريُّ في صحيحِهِ (٣٣٦٠) ومُسْلمٌ (١٢٤) وغَيْرُهما عَنْ عَلْقَمَةَ بنِ وقَّاصٍ اللَّيْثيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ : {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} شَقَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّنَا لا يَظْلِمُ نَفْسَهُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – : " لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ : {لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} بِشِرْكٍ ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَىٰ قَوْلِ لُقْمَانَ لابْنِهِ : {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} ؟ !

ففسَّرَ رسولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليْهِ وسلَّم – الظُّلمَ المذكورَ في سورةِ الأنعامِ بالشِّرْكِ المذكورِ في آيَةِ لقمانَ ، وهذا من أحسنِ وأصَحِّ طُرُقِ التَّفسيرِ ، وهو تَفْسيرُ القُرآنِ بالقُرآنِ *

---

* قالَ شيخُ الإسْلام ابنُ تَيْمِيَةَ – رحِمه اللَّهُ تَعالَى – : إنْ قالَ قائلٌ : ما أحْسَنُ طرُقِ التَّفسير ؟ فالجواب : إنَّ أصَحَّ =

وإنَّما اشتَبَهَتْ هذه الآيةُ علَىٰ مَنْ اشتَبَهَتْ عليهِ مِنْ الصَّحابَةِ لأنَّهم أجرَوْهَا علَىٰ مُقْتَضىٰ لِسانِ العرَبِ : فقولُهُ – تعالَىٰ – : {الذينَ آمنوا ولم يَلْبِسوا} أيْ : لم يَخْلِطوا {إيمانَهم بظُلمٍ} أيْ : بأيِّ ظُلْمٍ مَهما قلَّ أو نَدَرَ ، لأنَّ كَلِمة " ظلم " نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ فتُفِيدُ العُمومِ {أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} ومفهومُ المخالفةِ : أنَّ مَنْ خَلَطَ إيمانَهُ بأيِّ ظُلمٍ فإنَّهُ محرومٌ من الأمْنِ والهِدايةِ في الدُّنْيا والآخِرةِ ، وليْسَ هناكَ بعدَ الأنبياءِ أحَدٌ معصومٍ ! فلذلكَ خافوا علىٰ أنْفُسِهم وقالوا : وأيُّنا لم يَظْلِمْ نَفْسَهُ ؟!

فأزالَ لهم النَّبيُّ – صَلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – هذا الإشْكالَ ، وبَيَّنَ أنَّهُ ليْسَ المقصودُ بالظُّلمِ في هذه الآيةِ ما فهِموهُ من عمومِ الزَّلَّاتِ والهَفَواتِ ، وإنَّما المقصودُ بهِ خُصوصُ الشِّرْكِ ، وقال لهم : " ألم تَسْمعوا إلَىٰ ما قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان/١٣] "

ومِنْ هَذا البَابِ أيْضـًا قولُ اللَّهِ – عزَّ وجلَّ – : {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً} [طه/١١١] قالَ ابنُ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنهما – : خَسِرَ مَنْ أشْرَكَ باللَّهِ – تَعالَىٰ – ولَم يَتُبْ .

أيْ : قد خابَ وخَسِرَ مَنْ تَحَمَّلَ شِرْكـًا ولم يَتُبْ منه ولَقِيَ اللَّهَ – تَعالَىٰ – مُشْرِكـًا .

والمُؤمنُ لا يَخِيبُ سَعْيُهُ أبداً إذا كانَ صالحـًا ولا يَضِلُّ عَمَلُهُ ، بخلافِ الكافرِ فإنَّهُ تُحْسَبُ عليهِ سيِّئاتُهُ ولا يَنْتَفِعُ بشيءٍ من أعمالِهِ في الآخِرةِ ، ولا حَسَنَةَ لهُ في اليَومِ الآخِرِ :

قالَ اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – : {إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [المائدة /٧٢] وكُلُّ ذنْبٍ يَلْقىٰ العَبْدُ بِهِ ربَّهُ عَسَىٰ أنْ يَغْفِرَهُ اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – ما خلا الشِّرْكَ ، فإنَّ اللَّهَ – تَعالَىٰ – لا يَغفرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ أصْلاً ، كما قالَ – تعالَى – : {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً} [النِّساء/٤٨]*

= الطُّرُقِ في ذلك أنْ يُفَسَّرَ القُرآنُ بالقُرآنِ ، فما أُجْمِلَ في مكانٍ فإنَّهُ قد فُسِّرَ في مَوْضِعٍ آخَرَ ، وما اخْتُصِرَ في مكانٍ فقد بُسِطَ في مَوْضِعٍ آخَرَ ... إلخ " مقدمة في أصول التَّفسير " (٣٩)

ومِنْ أمثلتِهِ : قَولُ اللَّهِ – تَعالَى – : { فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة/٣٧] ولم يُبَيِّنْ هنا ما هيَ هذه الكلماتُ ، ولكنْ جاءَ بيانُ هذه الكلماتِ وما هُنَّ في قولِ اللَّهِ – تَعالَى – : { قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [الأعراف/٢٣] ... وثَمَّةَ أمثلةٌ أخْرَى كثيرةٌ .

* ونحو هذه الآيةِ قَوْلُهُ – تعالى – : { إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً } [النِّساء/١١٦]

وأخرج التِّرمذيُّ في " جامعه " (٣٥٤٠) وأبو نُعَيْمٍ في " الحِلْيَةِ " (٢/ ٢٣١) وغَيْرُهُما عن أنسِ بن مالكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنه – قال : سَمِعْتُ رسولَ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يقُولُ : " قالَ اللَّهُ – عزَّ وجَلَّ - : " يا ابْنَ آدمَ إنَّكَ ما دَعَوتَنِي ورَجَوتَنِي غَفَرتُ لك علىٰ ما كان فيكَ ولا أُبَالِي يا ابْنَ آدمَ لَو بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنانَ السَّماءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَني غَفَرْتُ لَكَ ولا أُبالي ، يا ابْنَ آدمَ إنّك لو أَتَيْتَني بقُرابِ الأرْضِ خَطايا ثُمَّ لَقِيتني لا تُشرِكُ بي شيئًا لأَتَيْتُكَ بقُرابِها مَغْفِرةً " *

وأخرج الإمامُ مُسْلِمٌ (٩٣) وأحمدُ (٣/ ٣٩١) وعبدُ بنُ حُمَيْدٍ (١٠٥٨) وأبو يَعْلَىٰ (٢٢٧٨) والبَيْهَقِيُّ في " الكُبْرَىٰ " (٧/ ٧٠) والبَغويُّ في " شرح السُّنَّةِ " (٥٠) وغيْرُهُم عَنْ جَابِرِ بنِ عبْدِ اللَّهِ – رَضِيَ اللَّهُ عنهما – قَالَ : أَتَىٰ النَّبِيَّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُوجِبَتَانِ ؟ فَقَالَ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ " .

---

* وهذا الحديثُ في إسْنادِهِ لينٌ ، فإنَّهُ من روايةِ كَثيرِ بنِ فائِدٍ عن سَعيدِ بنِ عُبَيْدٍ الهنَّائيِّ عن بكر بن عَبدِ اللَّهِ المُزنيّ عن أَنَسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنه - ، وكثيرُ بنُ فائدٍ قالَ فيه الحافظُ : مقبول ! أيْ : إذا تُوبِعَ ، وهنا لم يُتَابِعْهُ أحَدٌ ولكنْ لهذا الحديثِ شَواهدُ يُقَوّي بعضُها بَعضاً ، منها :

ما أخْرجهُ الإمامُ أحمد في " مُسنِده " (٥/ ١٦٧و ١٧٢) والدارميُّ (٢٨٣٠) وابنُ أبي الدُّنْيا في " حسن الظَّنِّ باللَّهِ " (٣٢) والبَيْهَقِيُّ في " شُعَب الإيمان " (١٠١١) وغَيْرُهُم من طريقِ شهر بن حوشَبٍ عن مَعْدي كَرِب عن أبي ذرٍّ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم - : " قالَ اللَّهُ – تعالَى - : يَا ابنَ آدمَ إنَّكَ ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لك عَلَى ما كان فيك ، يا ابنَ آدمَ إنْ تَلْقَنِي بقُرابِ الأرضِ خَطايا لَقِيتُك بقُرابِها مَغْفِرةً بَعْدَ أنْ لا تُشْرِكَ بي شَيْئًا ، ابنَ آدمَ إنَّكَ إنْ تُذْنِبْ حَتَّى يَبْلُغَ ذَنْبُكَ عَنَانَ السَّماءِ ثُمَّ تَسْتَغْفِرني أغْفِرُ لك ولا أبالي "

وأخرجه مُسلمٌ (٢٦٨٧) وابنُ ماجه (٣٨٢١) وأحمد (٥/١٥٣و١٥٥و١٦٩) والبَزَّار في " مُسْنَدِهِ " (٣٩٨٨) والبَيْهقيُّ في " الشُّعَب " (١٠٤٣و٧٠٤٧و٧٠٤٨) والبَغَويُّ (١٢٥٣) وغَيْرُهُم من وجهٍ آخَرَ عن الأعْمَشِ عَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " يَقُولُ اللَّهُ – عَزَّ وَجَلَّ - : مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدُ ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَجَزَاؤُهَا مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ ، وَمَنْ عَمِلَ قُرَابَ الْأَرْضِ خَطِيئَةً ثُمَّ لَقِيَنِي لا يُشْرِكُ بِي شَيْئاً جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَهَا مَغْفِرَةً ، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْراً اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً ، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً ، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً "

وله شَاهدٌ آخَرُ من حديث ابنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – مَرْفوعاً بمِثْلِهِ : أخرجه الطَّبرانيُّ في " معجمِهِ الكبير " (١٩/١٢رقم ١٢٣٤٦) وفي " الأوسط " (٥٤٨٣) وفي " الصَّغير " (٨٢٠) وأبو نعيم في " الحلية " (٤/ ٣٠١) والطَّبَريُّ في " تَهْذيب الآثار " (٩٤٣) وغيْرُهُما من طريقِ إبراهيمَ بن إسْحاقَ الضَّبِّيّ عَنْ قَيْسِ بن الرَّبيعِ عن حَبيبِ بنِ أبي ثابِتٍ عن سَعيدِ بن جُبَيرٍ عن ابنِ عَبَّاسٍ مرفوعاً بهِ . وانظر " الصَّحيحة " (٢٧)

قَوْلُهُ : " عَنَانَ السَّمَاءِ " بِفَتْحِ العَيْنِ : قِيلَ : هُو السَّحَابُ ، وقِيلَ : هُوَ مَا عنَّ لَكَ مِنْها ، أَيْ : ظَهَرَ .

وقَوْلُهُ : " قُرَابُ الأَرْضِ " بِضَمِّ القافِ ورُويَ بِكَسْرِهَا والضَّمُّ أَشْهَرُ ، وهُو ما يُقَارِبُ مِلْئَهَا .

وَرَوَىٰ الإمامُ مسلمٌ في " صحيحِهِ " (٢٨٠٨) والبخاريُّ في " خلق أفعال العبادِ " (٤٣٢) وأحمد (٣/ ١٢٣و ١٢٥و٢٨٣)وعَبْدُ بنُ حُمَيْدٍ (١١٧٨) والطَّيالِسِيُّ (٢٠١١) وابن حِبَّانَ (٣٧٧) وغيرُهُم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً : يُعْطَىٰ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَىٰ بِهَا فِي الآخِرَةِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّىٰ إِذَا أَفْضَىٰ إِلَىٰ الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَىٰ بِهَا " .

يَعْنِي أنَّ الكافرَ مَهما كانَ دينُهُ – يَهُوديًّا أو نصرانِيًّا أو غيرُ ذلكَ – أو كانَ بِلا دينٍ أصْلاً = إذا عَمِلَ حَسَنَةً أو قَدَّمَ خَيْراً في الدُّنْيا فإنَّ اللَّهَ – تَعالَىٰ – يُؤتيهِ جزاءَهُ في الدُّنْيا بأنْ يُوَسِّعَ عَلَيْهِ فيها في الأموالِ والأملاكِ أو يَرْزُقَهُ شُهرةً ومكانةً بيْنَ الخَلْقِ أو غَيْرُ ذلك ، ولا نَصِيبَ له في الآخِرَةِ *

مثال : نَحْنُ نَرَىٰ في الدُّنْيا بَعْضَ صُنوفِ المشركينَ بجهودٍ فرديَّةٍ أو في مُنَظَّماتٍ مَحَلِّيَّةٍ أودولِيَّةٍ يَسْعَوْنَ لإغاثةِ المنكوبينَ ومُساعدةِ الملْهوفينَ وإيواءِ اللاجِئينَ والبائسينَ وغير ذلك .

ونَرَىٰ في الدُّنْيا بعضَ الكافرينَ يَبْنونَ مُسْتَشْفياتٍ ويُقَدِّمونَ خَدَماتٍ عِلاجِيَّةٍ ، ويَبْنونَ مدارس ، ويَتَبَنَّونَ مشاريعَ خَدَمِيَّةً ، وهذا في كثيرٍ من دُوَلِ العالم ... إلخ

حَتَّىٰ إنَّني رأيْتُ بعضَ النَّصارَىٰ يَتَبَرَّعُ بمبالغَ غيرِ قليلةٍ لإقامةِ لإقامةِ " مائدة الرَّحْمن " في شَهر رمضانَ لِكيْ يُطْعِمَ فيها الفُقَراءَ والمساكينَ !

الرَّجُلُ الذي اكْتَشَفَ الكَهْرُباءَ والذي اخْتَرَعَ السَّيَّارةَ والقِطارِ والطَّائرةَ والذي اخْتَرَعَ التِّليفون والبَريدِ والتِّليفزيونَ والذي اكْتَشَفَ الإنْتَرْنِتْ وغيْرُهُم مِمَّنْ انْتَفَعَتْ الدُّنْيا كُلُّها بأعْمالِهم ، وقَرَّبُوا علىٰ النَّاسِ البعيدِ وسَهَّلوا علىٰ النَّاسِ العَسِيرِ .

وبِغَضِّ النَّظَرِ : هل هذا كُلُّهُ لتحقيقِ أهدافٍ مخصوصةٍ واستمالةِ قلوبِ طوائفَ مُعيَّنةٍ وغزْوِ عُقولِ شُعوبٍ وجماعاتٍ وتَبْديلِ دينِ كثيرٍ من النَّاسِ تَحْتَ ضُغوطِ الفقرِ والمَرَضِ والضَّعفِ ، أو أنَّ هذا من الجُودِ وكَرَمِ النَّفْسِ والأعمالِ الإنْسانِيَّةِ المَحْضةِ = فإنَّ هؤلاءِ جميعًا يأخذونَ

---

* قال النَّوَوِيُّ – رحمه اللَّهُ -: أَجْمَعَ العُلَماءُ عَلَى أنَّ الكافِرَ الذي ماتَ على كُفْرِهِ لا ثَوابَ له في الآخِرةِ ، ولا يُجَازَى فيها بشَيءٍ مِنْ عَمَلِهِ في الدُّنْيا مُتَقَرِّباً إلى اللَّهِ – تعالى – وصَرَّحَ في هذا الحديثِ بأنَّهُ يُطْعَمُ في الدُّنْيا بِما عَمِلَهُ من الحَسَنَاتِ ، أيْ : بما فَعَلَهُ مُتَقَرِّباً بهِ إلى اللَّهِ – تَعالى - مِمَّا لا تَفْتَقِرُ صِحَّتُهُ إلى النِّيَّةِ كصِلَةِ الرَّحِمِ والصَّدَقَةِ والعِتْقِ والضِّيافَةِ وتَسْهيلِ الخَيْراتِ ونَحْوِها ، وأمَّا المُؤْمِنَ فيَدَّخِرُ له حَسَنَاتِهِ وثَوابَ أعْمالِهِ في الآخِرةِ ، ويُجْزَى بها مع ذلك أيْضاً في الدُّنْيا ، ولا مانعَ من جَزائِهِ في الدُّنْيا والآخِرةِ ، وقد ورد الشَّرْعُ بِهِ فيَجِبُ اعْتِقَادُهُ ... وأمَّا إذا فَعَلَ الكافرُ مثلَ هَذِهِ الحَسَنَاتِ ثُمَّ أسْلَمَ فإنَّهُ يُثَابُ عليها في الآخِرةِ على المذهبِ الصَّحيح . اهـ " شرح صحيح مسلم " (١٧/١٥٠)

ثوابَهم في الدُّنْيا ، ولا حَسَنةَ لَهُم في الآخِرَةِ ، ولا ثوابٌ ولا أجرٌ .

قالَ اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – : {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً {١٨} وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً } [الإسراء/١٨–١٩]

فاشْتَرَطَ اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – للانتفاعِ بالسَّعي والعَملِ في الآخِرةِ أنْ يكونَ الإنْسانُ مؤمِنـًا أوَّلاً !

وقالَ اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – : {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا } أيْ : في الدُّنيا {وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ} أيْ : لا يُظْلَمونَ شيْئـًا من أعمالِهم {أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [هود/١٥–١٦]

وقالَ اللَّهُ – عزَّ وجَلَّ – : {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ} [الشُّورى/٢٠]

وقدْ كانَتْ عائشةُ – رَضِيَ اللَّهُ عنها – تَسْتَشْكِلُ هذا المعنىٰ ، وسألتْ عنه رسولَ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسلَّم – ، كما رواه مُسْلمٌ في " صحيحه " (٢١٤) وأحمد (٦/ ١٢٠) والحاكم (٢/ ٤٠٥) وابنُ حِبَّانَ (٣٣٠) وغَيْرُهُم عن عُبَيْدِ بنِ عُمَيْرٍ عن عائشةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنها – قَالَتْ : قُلْتُ : يا رسُولَ اللَّهِ إنَّ عَبْدَ اللَّهِ بنَ جُدْعانَ كان في الجَاهِلِيَّةِ يَقْرِي الضَّيْفَ ويَفُكُّ العانيَ – أيْ : الأسيرَ – ويَصِلُ الرَّحِمَ ويُحْسِنُ الجِوارَ – فأثْنَتْ علَيْهِ – فهل ذلك ينْفَعُهُ ؟ أيْ : عِنْدَ اللَّهِ – تَعالَىٰ – في الآخِرةِ . فَقَال رسولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسَلَّم – : " لا يَنْفَعُهُ ، إنَّهُ لَم يَقُلْ يومـًا : ربِّ اغْفِرْ لي خَطِيئتي يومَ الدِّين "

وفي الجُمْلَةِ قالَ اللَّهُ – عَزَّ وجلَّ – : {وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} [الزخرف/٣٥]

وقالَ – عزَّ وجلَّ – : {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القَصَص/٨٣]

وقالَ – عزَّ وجلَّ – : {وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [طه/١٣٢]

إذا عَلِمتَ أنَّ الشِّرْكَ هو أعظمُ الظُّلمِ وأقْبَحُهُ ، وسَقْفُ الجرائمِ وأشْنَعُ المُنْكَراتِ فلا تَظُنَّنَّ أنَّكَ بَرِئٌ من كُلِّ صُوَرِهِ وشُعَبِهِ ، أو أنَّنا بَعيدونَ عنه وفي أمانٍ منهُ :

فَقد يكونُ الإنسانُ واقِعاً في شُعْبةٍ من شُعَبِ الجاهليَّةِ وهو لا يَدْري !

وقَدْ يَكُونُ بَعْضُ أهْلِ بَيْتِهِ أو قَراباتِهِ أو جِيرانُه وإخْوانِهِ واقعونَ في ذلكَ وهم لا يَشْعُرون !

خُصوصاً وأنَّ النَّبيَّ الأكْرمَ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – أخْبَرَ أنَّ الشِّرْكَ سَيَقعُ في طوائفِ من أُمَّتِهِ وجماعاتٍ من المُنْتَسِبينَ إلَىٰ دينِهِ لا مَحالَةِ بِسَبَبِ تَزيينِ الشَّياطِينِ والأئمَّةِ المُضِلِّينِ وفَسَقَةِ المُفْتينَ وسَماسرةِ الخُرافةِ وسَحَرةِ العُقولِ :

وأخرجَ البُخارِيُّ (٧١١٦) ومسلم (٢٩٠٦) وغيْرُهُما عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ حَوْلَ ذِي الْخَلَصَةِ " وَذو الخلَصةِ هيَ طاغيةُ دَوْسٍ التي كَانُوا يَعْبُدُونهَا في الْجَاهِلِيَّةِ فيَرجعونَ – أيْ : ذُرِّيَّتُهُم ونَسْلُهُم - إلىٰ عِبَادَتِها مرَّةً ثانِيةً .

وأخْرَجَ الإمامُ مُسْلِمٌ في " صحيحِهِ " (٢٩٠٧) وأبو يَعلَىٰ (٤٥٦٤) والبغويُّ في " شرح السُّنَّة " (٤٢٨٩) وغيْرُهُم عن عائشةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنها – قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ : " لا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّىٰ تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ "

فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنْ كُنْتُ لأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ : { **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** } أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا ! أيْ : صفوٌ لا كَدَرَ فيهِ وإسْلامٌ لا شِرْكَ بعدَهُ .

قَالَ : إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحاً طَيِّبَةً ، فَتَوَفَّىٰ كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ ، فَيَبْقَىٰ مَنْ لا خَيْرَ فِيهِ فَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ دِينِ آبَائِهِمْ " .

---

* وقد قالَ النَّبيُّ – صَلَّى اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – لأبي ذَرٍّ الغِفاريِّ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – في زَمَانِ عِزِّ الإسلامِ وعافيتهِ !

أخرج البخاريُّ في " صحيحِهِ " (٣٠) ومسلمٌ (١٦٦١) وغيْرُهُما عن المعْرورِ بنِ سُوَيْدٍ قال : لَقِيتُ أبا ذرٍّ بالرَّبَذَةِ وعليهِ حُلَّةٌ وعلى غُلامِهِ حُلَّةٌ – أيْ : يُلْبِسُ عَبْدَهُ وخادِمَهُ مِثْلَما يَلْبَسُ هو – فسألتُهُ عن ذلك ؟ فقال : إنِّي سَابَبْتُ رجلاً فعَيَّرْتُهُ بأمِّهِ ، فقال لِيَ النَّبيُّ – صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم - : " يا أبا ذرٍّ أعَيَّرْتَهُ بأمِّهِ ؟! قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : " إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ " قُلْتُ : عَلَى حِينِ سَاعَتِي هَذِهِ مِنْ كِبَرِ السِّنِّ ؟ قَالَ : " نَعَمْ ، هُمْ إِخْوَانُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلاَ يُكَلِّفُهُ مِنَ العَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ – أيْ : ما لا يُطِيقُ – فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ "

رَوَىٰ أبو داودَ في " سُنَنِهِ " (٤٢٥٢) وابنُ ماجه (٣٩٥٢) وأحمد (٥/ ٢٨٤) والحاكم (٤/ ٤٤٩) وغيْرُهُم وأصْلُه في " صحيح مسلم " (٢٨٨٩) عن أبي أسماءَ – واسْمُهُ عمرو بنُ مَرْثَد – الرَّحبيِّ عن ثوبانَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليه وسَلَّم – : " إنَّ اللَّهَ زَوَىٰ لِيَ الأرضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُها مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَض ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لا يَهْلَكُوا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ ، وَلا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ وَلا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَسْبِي بَعْضًا ، وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ ، وَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ ، وحَتَّىٰ تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ في أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ! وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لا نَبِيَّ بَعْدِي ، وَلا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ "

فهذا كُلُّهُ يَدُلُّ علىٰ أنَّ الشِّرْكَ سَيَدِبُّ إلىٰ طوائفَ وجماعاتٍ من هَذه الأمَّةِ مِنْ جَديدٍ ، ويغزو قلوبَ فئامٍ منها بشؤمِ الجَهْلِ بأحْكامِ الدِّينِ وكثرةِ شُبُهاتِ وتَزويرِ الأئمَّةِ المُضِلِّين !

ولذلكَ خافَ الأفاضِلُ والكُمَّلُ علىٰ أنْفُسِهم وعلىٰ أهْلِيهم ، وابْتَهَلُوا إلىٰ اللَّهِ – تَعالَىٰ – أنْ يَعْصِمَهم وأهليهم من الوقوعِ في هذا الذَّنْبِ النَّحْسِ والمَعْصِيةِ الشُّؤم :

ألَمْ نَسْمَعْ إلىٰ دُعَاءِ إبْراهِيمَ الخليلِ – عليْهِ السَّلامُ – وهُو يَبْتَهِلُ إلىٰ ربِّهِ ويقولُ : {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ {٣٥} رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ} أضْلَلْنَ طوائفَ من النَّاسِ بعدَ طَوائفَ وجماعاتٍ بعدَ جماعاتٍ وأممًا بعدَ أُمَمٍ {فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [إبراهيم/٣٥-٣٦]

قالَ إبراهِيمُ التَّيْميُّ – رَحِمه اللَّهُ – : ومَنْ يَأمَنُ علىٰ نَفْسِهِ البَلاءَ بعدَ إبْراهِيمَ عليه السَّلامُ – ؟!

أيْ : إذا كانَ هذا النَّبيُّ الفاضِلُ والرَّسولُ الكاملُ يَخافُ علىٰ نَفْسِهِ وبنيهِ أنْ يتسَلَّلَ إليهم شيءٌ من عِبادةِ غيرِهِ أو أنْ تَتَعَلَّقَ قُلوبُهُم بسواهِ فمَنْ الذي يَضْمَنُ قَلْبَهُ ويأمَنُ علَىٰ نَفْسِهِ بعدَ ذلك !

وأخرَجَ البُخَاريُّ في " الأدب المُفْرَدِ " (٧١٦) وأبو يَعلَىٰ (٥٨) وغَيْرُهُما عَن مَعْقِل بن يَسارٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قَالَ : انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – إِلَىٰ النَّبِيِّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : « يَا أَبَا بَكْرٍ لَلشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَىٰ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ » أيْ : يَتَسَرَّبُ إلىٰ النُّفوسِ ويَدخُلُ إلىٰ القُلُوبِ في خُفْيَةٍ وغَفلَةٍ – فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَلِ الشِّرْكُ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَلشِّرْكُ أَخْفَىٰ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ ؟ » قَالَ : " قُلِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا أَعْلَمُ "

وأنا أضْرِبُ هنا مثالاً واحِداً يَسْتَرشِدُ به العاقلُ علىٰ سُرْعةِ وقوعِ هذا البَلاءِ في بلادِ المُسْلِمينَ : وهو هذه الأضْرحةُ والمَراقد – المقاماتِ – والقُبورُ التي تَمْلأُ بلدانَ المُسْلِمينَ وتَعَلَّقَ بها كثيرٌ من الخلقِ وبَنَوْا عليْها المساجدَ وطافوا حَوْلَها وذبَحوا لها الذَّبائحَ ووَفَّوا لَها وعندَها بالنُّذور ، واعْتَقَدُوا في أصْحابِها القُدْرةَ علىٰ كُلِّ شيءٍ وتَدْبيرِ أمورِ النَّاسِ والكَوْنِ ، ويَطْلُبونَ من أصْحابِها الشِّفاءَ والعافِيَةَ والتَّوفيقَ والنَّجاحَ والعَوْنَ والمَددَ ، وأنْ تَحْمَلُ النِّساءُ وأن يَرزقوهم بالأولادِ ، وأنْ يَكْشِفوا كَرْبَهم ويُقِيلوا لَهُم عَثَراتِهم وأنْ يَغْفِروا لَهُم ذنوبِهم ويتَجاوَزوا عن زلَّاتِهم ... إلىٰ آخِرِ ما لا يَحِلُّ أنْ يُطْلَبَ إلَّا مِن الرَّبِّ المالكَ ولا أنْ يُقْصَدَ فيهِ إلَّا الإلهَ الخالق .

يا أيُّها العُقلاءُ رجلٌ مَيِّتٌ كيْفَ تَطْلُبونُ منه ما تَعْجَزونَ عنه أنْتُم وهو ولا يَسْمَعُكم بلْ غافلٌ عنكم ؟! وهلْ هُناكَ ضلالٌ في العقلِ أكثرُ مِن ذلكَ ؟! قالَ اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – : { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ } [الأحقاف/٥]

ولو سَمِعَ هؤلاءِ المَوتىٰ صَرَخاتِ المتَوسِّلينَ إليهم والمُسْتَغِيثينَ بهم ما مَلَكُوا لهم جَلْبَ نَفْعٍ أو دَفْعَ ضُرٍّ ، ولا تَحصيلَ مَصْلَحَةٍ ولا رَفْعَ مَفْسَدَةٍ ، ولا إزالةَ هَمٍّ ولا كَشْفَ كَرْبٍ ، إنَّما ذلكَ كُلُّهُ إلىٰ اللَّهِ – تَعالَىٰ – لا إلىٰ غَيْرِهِ من حَيٍّ أو مَيِّتٍ :

قالَ اللَّهُ – تعالَى – : { ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ {١٣} إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ } [فاطر/١٤]

وقالَ اللَّهُ – تعالَىٰ – : { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ {٢٢} وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } [سَبَأ/٢١ – ٢٢]

وانْظُرْ إلَىٰ هَذه الآيةِ الفاذَّةِ الجامعةِ التي نَفَىٰ اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – كُلَّ ما يَتَعَلَّقُ به المُشْركونَ الأوائلُ وعُبَّادُ القُبُورِ من المُعاصِرينَ : فَنَفَىٰ أنْ يكونَ لغيْرِهِ أيُّ مُلْكٍ أو تَصَرُّفٍ مُسْتَقِلٍّ فقالَ : { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ } ثُمَّ نَفَىٰ أنْ تكونَ لهم شَراكَةٌ في المُلْكِ أو التَّصَرُّفِ والتَّدْبيرِ فقالَ : { وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ } ثُمَّ نَفَىٰ أنْ يكونَ لغيْرِهِ مُلْكٌ أو تَصَرُّفٍ من حَيثُ كونُهُ وزيراً أو مُشيراً أو مُعيناً للهِ – عزَّ وجلَّ – فقالَ : { وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ } فلَم يَتَبَقَّ مِمَّا يَتَمَسَّكونَ به إلَّا أنْ يكونَ شَفيعاً لهم عند اللَّهِ – تعالَىٰ – = فنفىٰ اللهُ – سبحانَهُ وبحمدِهِ – أنْ تكونَ شفاعةُ أحدٍ نافعةً عِندَهُ إلَّا بإذنِهِ ، فينبغي أنْ تُطْلَبُ الشَّفاعةُ منه هو – عزَّ وجلَّ – لا من الشَّفيعِ فقالَ : { وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ } [سَبَأ/٢١ – ٢٢] *

---

* قالَ شَيْخُ الإسْلامُ ابنُ تَيْمِيَةَ – رحِمه اللَّهُ تعالَى – : ... فبَيَّن – سُبْحانَهُ – أنَّ مَنْ دُعِيَ مِن دون اللَّهِ من جَميعِ المخلوقاتِ من الملائكةِ والبَشَرِ وغَيْرِهِم أنَّهم لا يَملِكونَ مِثقالَ ذَرَّةٍ في مُلْكِهِ وأنَّه لَيْسَ له شَريكٌ في مُلْكِهِ ، بل هُو – سُبْحانَهُ – له المُلْكُ وله الحَمْدُ وهو على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ ، وأنَّهُ لَيْسَ لَهُ عَوْنٌ يُعاونُهُ كَما يكونُ للمَلِكِ أعْوانٌ وظُهَراءَ ، وإنَّ الشُّفَعَاءَ عِنْدَهُ لا يَشْفَعُونَ إلَّا لِمَنْ ارْتَضَى = فنَفَى بذلكَ وجوهَ الشِّرْكِ ، وذلك أنَّ مَنْ يُدْعَوْنَ مِنْ دونِهِ إمَّا أنْ يكونَ مالكاً وإمَّا أنْ لا يَكونَ مالِكاً ، وإذا لَم يَكُنْ مالِكاً فإمَّا أنْ يَكُونَ شَريكاً وإمَّا أنْ لا يَكونَ شَريكاً ، وإذا لَم يَكُنْ شَريكاً فإمَّا أنْ يكونَ مُعاوِناً وإمَّا أنْ يكونَ سَائلاً طالباً = فالأقْسامُ الأُوَلُ الثَّلاثةُ – وهِيَ المُلْكُ والشَّرِكَةُ والمُعاوَنَةُ – مُنْتَفِيَةٌ ، وأمَّا الرَّابِعُ فلا يَكونَ إلَّا مِنْ بَعْدَ إذْنِهِ كما قال – تعالى – : { مَن ذا الذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بإذْنِهِ } [البقرة/٢٥٥] وكما قال – تعالى – : { وكَم مِنْ مَلَكٍ في السَّمواتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُم شَيْئاً إلَّا مِن بَعْدِ أنْ يَأذنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ ويَرْضَى } [النَّجم/٢٦] وقال – تعالى – : { أم اتَّخَذوا مِن دون اللَّهِ شُفَعاءَ قُلْ أَوَلَوْ كانوا لا يَمْلِكونَ شَيْئاً ولا يَعْقِلُونَ {٤٣} قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَميعاً له مُلْكُ السَّمواتِ والأرْضِ } [الزُّمَر/٤٣-٤٤] وقال – تعالَى – : { اللَّهُ الذِي خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ وما بَيْنَهُما في سِتَّةِ أيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ما لكم من دونِهِ مِن وَلِيٍّ ولا شَفِيعٍ أفلا تتذكَّرون } [السَّجْدة/٤] وَقالَ – تَعالَى – : { وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } [الأنعام/٥١] وَقالَ – تَعالَى – : { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ {٧٩} وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [آل عِمران/٧٩-٨٠]
فَإِذَا جُعِلَ مَنْ اتَّخَذَ الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً كَافِراً فَكَيْفَ مَنْ اتَّخَذَ مَنْ دُونَهُمْ مِنْ الْمَشَايِخِ وَغَيْرِهِمْ أَرْبَاباً ؟!
وَتَفْصِيلُ الْقَوْلِ : أَنَّ مَطْلُوبَ الْعَبْدِ إنْ كَانَ مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إلَّا اللَّهُ – تَعالَى – مِثْلُ أَنْ يَطْلُبَ شِفَاءَ مَرِيضِهِ مِنْ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ أَوْ وَفَاءَ دَيْنِهِ مِنْ غَيْرِ جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ عَافِيَةَ أَهْلِهِ وَمَا بِهِ مِنْ بَلَاءِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَانْتِصَارَهُ عَلَى عَدُوِّهِ وَهِدَايَةَ قَلْبِهِ وَغُفْرَانَ ذَنْبِهِ أَوْ دُخُولَهُ الْجَنَّةَ أَوْ نَجَاتَهُ مِنْ النَّارِ أَوْ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَالْقُرْآنَ أَوْ أَنْ يُصْلِحَ قَلْبَهُ وَيُحَسِّنَ خُلُقَهُ وَيُزَكِّي نَفْسَهُ

فلو أنَّ إنْسانـاً ذهَبَ إلىٰ قَبْرِ النَّبيِّ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – وقالَ : يا رسولَ اللَّهِ اشْفِني أو اهْدِ قَلْبي أو اغفرْ ذنْبي أو نَجِّح ولَدي أو ارزُقْني ولداً ... إلىٰ غيرِ ذلكَ مِمَّا نَسْمَعُهُ مِن النَّاسِ لكانَ مُشْركاً بذلكَ ، هذا مع مكانتِهِ ووجاهَتِهِ عندَ اللَّهِ – عزَّ وجلَّ – التي لا يُساويهِ فيها أحَدٌ من الأوَّلينَ والآخِرينَ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليْهِ وسلَّم – وأنَّهُ سَيِّدُ ولَدِ آدمَ وأشْرَفُهم = فكيْفَ إذا سُئِلَ غَيْرُهُ وطُلِبَ منْهُ أنْ يَقْضِيَ هذه الحاجاتِ ؟! إذا فماذا بَقِيَ لِرَبِّ العالَمينَ – سبْحانَهُ وبحَمْدِهِ – ؟ إذا كانَ الذي يَهَبُ الأولادَ والذُّرِّيَّةَ غيرُهُ ، والذي يَشْفِي ويُعافِي غَيْرُهُ ، والذي يَهْدِي القلوبَ غيرُهُ ، والذي يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غيْرُهُ ، والذي يَكْشِفُ الكُروبَ غَيْرُهُ ، والذي يُدَبِّرُ الأمْرَ ويَتَصَرَّفُ في الكونِ غَيْرُهُ ... فماذا بَقِيَ لِربِّ العالَمينَ إذاً ؟! فيالَسَخافةَ عُقولِ المُشْركينَ !* فإنَّ هذا كُلَّهُ مِنْ خَصائصِ ربِّ العالَمينَ – سُبْحانَهُ وبحَمدِهِ – :

فإنَّه لا يَرْزُقُ بالذُّرِّيَّةِ والأوْلادِ إلَّا اللَّهُ كما قالَ – تعالَىٰ – : {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ {٤٩} أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} [الشُّورى/٥٠]

وإنَّه لا يَهْدِي ولا يَرْزُقُ ولا يَشْفِي ولا يُعافي ولا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا اللَّهُ – سبحانَهُ – كما قالَ إبْراهِيمُ – عليه السَّلام – : {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ {٧٨} وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ {٧٩} وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ {٨٠} وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ} [الشُّعَراء/٨١]

وَأَمْثَالَ ذَلِكَ = فَهَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا لَا يَجُوزُ أَنْ تُطْلَبَ إِلَّا مِنْ اللَّهِ – تَعَالَى - وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ لِمَلَكٍ وَلَا نَبِيٍّ وَلَا شَيْخٍ – سَوَاءٌ كَانَ حَيّاً أَوْ مَيّتاً – اغْفِرْ ذَنْبِي وَلَا أنْصُرْنِي عَلَى عَدُوِّي وَلَا اشْفِ مَرِيضِي وَلَا عَافِنِي أَوْ عَافِ أَهْلِي أَوْ دَابَّتِي وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ . وَمَنْ سَأَلَ ذَلِكَ مَخْلُوقاً كَائِناً مَنْ كَانَ فَهُوَ مُشْرِكٌ بِرَبِّهِ مِنْ جِنْسِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْمَلائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ وَالتَّمَاثِيلَ الَّتِي يُصَوِّرُونَهَا عَلَى صُوَرِهِمْ ، وَمِنْ جِنْسِ دُعَاءِ النَّصَارَى لِلْمَسِيحِ وَأُمِّهِ قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى - : { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ } [المائدة/١١٦] الْآيَةُ ، وَقَالَ – تَعَالَى - : { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [التَّوبة/٣١] . وَأَمَّا مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ فَيَجُوزُ أَنْ يُطْلَبَ مِنْهُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ دُونَ بَعْضٍ ... إلخ " الفتاوى " (٢٧/٦٦-٦٨)

* ومِمَّا ذكَرَهُ بعضُ المشايخِ من سخافاتِ هؤلاءِ القُبُوريّينَ : أنَّ رجلاً كانَتْ امرأتُهُ تُعاني من آلامِ المَخاضِ والوِلادةِ ، ولم يَدْرِ ما يَفْعَلُ هو ، فذهَبَ إلى قَبْرِ الإمامِ الشَّافعيِّ – رحمه اللَّهِ – والذي عليْهِ مَقامٌ لهُ ، فظَلَّ الرَّجُلُ يَبْكِي على عَتَباتِ المقامِ ويَقُولُ : يا سَيِّدي خَفِّفْ عليْها آلامَ المَخاضِ ويَسِّرْ عليها الولادةَ وارزقنا بمولودٍ ببركتكَ وكرمك ! فقال له رجلٌ بجانِبِهِ على المقام : ماذا تُريدُ من الإمام ؟ قال الرَّجُلُ : أنْ يُساعِدَ امرأتي في الولادةِ ، فقال صاحِبُه : إنَّ الإمامَ ليْسَ هنا الآنَ ، وإنَّهُ ذهبَ قبلَ قليلٍ في لِيُوَلِّدَ امرأةً أخْرَى !

وإنَّه لا يَمْلِكُ النَّفْعَ والضُّرَّ إلَّا اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – : { وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الأنعام/١٧]

ولا يُجِيبُ المُضْطرَّ ولا يُنَجِّي المَكْروبَ ولا يُغِيثُ المَلْهُوفَ علَىٰ الحقيقةِ إلَّا اللَّهُ – سبحانَهُ وبحمدِهِ – كما قالَ – تعالَى – : { وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [يونس/١٠٧] وقالَ – تعالَى – : { أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ } [النَّمْل/٦٢]

وكم نَهىٰ النَّبيُّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسلَّم – عن تَعْظِيمِ القُبورِ والافْتتانِ بها فَضْلاً عن التَّعَلُّقِ بها وعِبادتِها ، وبَيَّنَ أنَّ ذلكَ مِن سُنَنِ اليَهودِ والنَّصارىٰ وأنَّهُ كانَ من أسْبابِ لَعْنِهم :

رَوَىٰ البُخاريُّ (٤٣٥ و٤٣٦) ومسلمٌ (٥٣١) وغَيْرُهم عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ : أَنَّ عَائِشَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنهم – قَالا : لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ – طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ : " لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَىٰ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ " يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا .

وَرَوَىٰ البُخاريُّ (٤٤٤١) ومسْلمٌ (٥٢٩) وغَيْرُهما عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – قَالَتْ : قَالَ النَّبِيُّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ – فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ : " لَعَنَ اللَّهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ " قَالَتْ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللَّهُ عنها – : لَوْلا ذَلِكَ لأُبْرِزَ قَبْرُهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ – أوْ : خُشِيَ – أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً .

وَرَوَىٰ البُخاريُّ (٤٣٧) ومسلم (٥٣٠) وغَيْرُهما عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ : عن أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ " .

وأخْرَجَ البُخاريُّ (٤٢٧) ومسْلمٌ (٥٢٨) وغيْرُهما عَنْ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنها – : أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنهما – ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ لِلنَّبِيِّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ – فَقَالَ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليْهِ وسلَّم – : " إِنَّ أُولَئِكِ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ ، أُولَئِكِ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ " .

وَرَوَىٰ مُسْلِمٌ في " صحيحه " (٥٣٢) والنَّسائيُّ في " الكبرىٰ " (١١٠٥٨) وابنُ أبي شَيْبَةَ في " مُصَنَّفِهِ " (٢/ ٣٧٥ رقم ٧٦٢٨) والرُّوياني في " مُسْنَدِه " (٩٦٠) والطَّبرانيُّ في " الكبير " (٢/ ١٦٨ رقم ١٦٨٦) وغَيْرُهُم عَنْ جُنْدَبِ بنِ عبْدِ اللَّهِ البَجَلِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ : " إِنِّي أَبْرَأُ إِلَىٰ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ ، فَإِنَّ اللَّهِ – تَعَالَىٰ – قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ، أَلا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ ، أَلا فَلاَ تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ " .

وجاءت نُصوصٌ كثيرةٌ في النَّهي عن أفعالٍ وأقوالٍ النَّاسُ يفعلونَها اليومَ ويتوارثونَها جيلاً بعدَ جيلٍ ، وقد أحْسَنَ حافظُ بنُ أحمدَ الحكميُّ في اختصارِ كثيرٍ منها نَظمًا فقالَ – رحمه اللَّهُ – :

وَمَنْ عَلَىٰ القَبْرِ سِراجًا أَوْقَدَا *** أَوِ ابْتَنَىٰ عَلَىٰ الضَّرِيحِ مَسْجِدَا

فَإِنَّهُ مُجَدِّدٌ جِهَارَا *** لِسُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ

كَمْ حَذَّرَ الْمُخْتَارُ عَنْ ذَا وَلَعَنْ *** فَاعِلَهُ كَمَا رَوَىٰ أَهْلُ السُّنَنْ

بَلْ قَدْ نَهَىٰ عَنِ ارْتِفَاعِ الْقَبْرِ *** وَأَنْ يُزَادَ فِيهِ فَوْقَ الشِّبْرِ

وَكُلُّ قَبْرٍ مُشْرِفٍ فَقَدْ أَمَرْ *** بِأَنْ يُسَوَّىٰ هَكَذَا صَحَّ الْخَبَرْ

وَحَذَّرَ الأُمَّةَ عَنْ إِطْرَائِهِ *** فَغَرَّهُمْ إِبْلِيسُ بِاسْتِجْرَائِهِ

فَخَالَفُوهُ جَهْرَةً وَارْتَكَبُوا *** مَا قَدْ نَهَىٰ عَنْهُ وَلَمْ يَجْتَنِبُوا

فَانْظُرْ إِلَيْهِمْ قَدْ غَلَوْا وَزَادُوا *** وَرَفَعُوا بِنَاءَهَا وَشَادُوا

بِالشِّيدِ وَالآجُرِّ وَالأَحْجَارِ *** لا سِيَّمَا في هَذِهِ الأَعْصَارِ

وَلِلْقَنَادِيلِ عَلَيْهَا أَوْقَدُوا *** وَكَمْ لِوَاءٍ فَوْقَهَا قَدْ عَقَدُوا

وَنَصَبُوا الأَعْلامَ وَالرَّايَاتِ *** وَافْتَتَنُوا بِالأَعْظُمِ الرُّفَاتِ

بَلْ نَحَرُوا في سُوحِها النَّحَائِرْ *** فِعْلَ أُولِي التَّسْيِيبِ وَالْبَحَائِرْ

وَالْتَمَسُوا الْحَاجَاتِ مِنْ مَوْتَاهُمُ *** وَاتَّخَذُوا إِلَهَهُمْ هَوَاهُمُ

قَدْ صَادَهُمْ إِبْلِيسُ في فِخَاخِهِ *** بَلْ بَعْضُهُمْ قَدْ صَارَ مِنْ أَفْرَاخِهِ

يَدْعُو إِلَىٰ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ *** بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ وَبِاللِّسَانِ

فَلَيْتَ شِعْرِي مَنْ أَبَاحَ ذَلِكْ *** وَأَوْرَطَ الأُمَّةَ في الْمَهَالِكْ

فَيَا شَدِيدَ الطَّوْلِ وَالإِنْعَامِ *** إِلَيْكَ نَشْكُو مِحْنَةَ الإِسْلامِ

وهُنا شيءٌ آخَرُ ينبغي التَّنبيهُ عليه ، وهو : هَلْ حَقًّا أنَّ هؤلاءِ الأولياءِ مدفونونَ في هذه الأضْرحة والمقاماتِ ؟ والجَوابُ : إنَّ كثيراً منها مكذوبةٌ وليْسَ فيها أحَدٌ ، أو فيها جُثَّةُ كَلْبٍ أو رأسُ حمارٍ ، أو هو قبرٌ لواحدٍ من عُمومِ النَّاسِ ، وقَصَصُ النَّاسِ وحِكاياتُهم في ذلكَ كثيرةٌ جدًّا ، وأنا أذْكُرُ مَوْقِفًا واحداً مِمَّا عندِي ، وذلكَ أنَّ بَعْضَ الدُّعاةِ كانتْ عِنْدَهُ مُحاضَرةٌ في بعضِ مُدُنِ محافظةِ الدَّقَهْلِيَّة في يوم خَميسٍ ، وبينما هو في أثْناءِ المُحاضرةِ إذْسَمِعَ جَلَبَةً كبيرةً ومزاميرَ رنَّانةً وصفيراً وضوْضاءَ ومَوْكِبًا فسأَلَ إخْوانَهُ في المَسْجِدِ : ما هذا المَوْكِبُ والاحتفالُ الكبيرُ؟

فقالُوا : هذه هي الختامِيَّةُ من مَوْلِدٍ لبعضِ أوْلِياءِ اللَّهِ الصَّالِحينَ !

فقالَ : مَنْ هذا الوَلِيُّ الذي يَحْتَفِلونَ به وأقاموا من أجْلِهِ هذا المَوْلِدَ ؟

فَقالوا : إنَّهُ مَوْلِدُ العارف باللَّهِ شِيمَر بن الوليد – رَضِيَ اللَّهُ عنه وأرْضاهُ – !

فقالَ : ومَنْ هو شيمرُ بنُ الوليدِ هذا ؟

قالوا : إنَّهُ صحابيٌّ فاضلٌ ولهُ كَراماتٌ ، وهو أخو الصَّحابيِّ الجَليلِ خالدُ بنُ الوَليد !

فقال ذلكَ الدَّاعيةُ : هذا صحابيٌّ لم يُخْلَقْ بعدَ !

وقُلْ مثلَ هذا في قَبْرِ الحُسَينِ بن عليٍّ – رضي اللهُ عنهما – المزعوم في القاهرةِ ، وكثيرٍ غيْرِهِ !

وهذه صورةٌ من الخُرافاتِ الكثيرةِ التي تُفْتَرَىٰ حولَ كثيرٍ من المَدفونينِ لابتزازِ أموالِ السُّذَّجِ ! وهو يُبَيِّنُ لكَ أنَّ كثيراً من الخَلْقِ عُقولُهُم مُلْغاةٌ وفي إجازةٍ ، أو هي عُقولٌ مُستأجرة لصنَّاعِ الخرافةِ هؤلاء أو أسْكَرَتْها خَمرُ قَصَصِهم الخَيَالِيَّةِ وشخْصِيَّاتِهم الوهميَّةِ واللَّهُ المُسْتَعانُ .

وأمْرٌ ثانٍ وهو : لو أنَّنا افتَرَضْنا جَدَلاً أنَّ الوَلِيَّ الفُلانيَّ مدفونٌ في القَبْرِ المُعَيَّنِ = فهلْ هو يَمُدُّ يَدَهُ ويأخُذُ نَصِيبًا من صندوقِ النُّذورِ التي تُوضعُ فيها ألوفٌ بعْدَ ألوفٍ ؟ أو يَمُدُّ يَدَهُ ويأخُذُ شيئًا من البَطِّ والأوزِّ والخرافِ والنِّعاجِ والتُّيوسِ والعُجولِ التي تُهْدَىٰ لضَريحِهِ وتُذبَحُ عندَهُ ؟ والجوابُ : لا ، وإنَّما هناكَ عِصابةٌ مِن المُنْتَفعينِ وشِلَّةٌ من السَّدَنَةِ أصْحابِ المنافعَ هم الذينَ يَحْرُسونَ هذه الخُرافةِ ويَنْسُجونَ حولَها عَشَراتٍ من القَصَصِ الوَهْمِيَّةِ لابتزاز أموالِ النَّاسِ ! ولذلكَ لَمَّا سُئلَ بَعضُ وُزراء الأوقافِ السَّابقينَ عن حمايةِ الوَزارةِ لهذه الأضرحةِ والعِنايةِ بتشْييدِها مع أنَّ مَنْهِيٌّ عنه صراحةً في النُّصوصِ ؟ فقالَ الرَّجُلُ بكلِّ وضوحٍ : لأنَّها مَصْدَرٌ أساسيٌّ يُدِرُّ علىٰ الوزارةِ ملايينَ الجُنَيْهاتِ سَنَوِيًّا ! قُلْتُ : ومَنْ يَعِشْ رَجَبًا يَرَ عَجبًا !

وأمَّا القسمُ الثَّاني من أقْسَامِ الظُّلمِ فهو مَظَالِمُ العِبادِ فيما بَيْنَهُم وعُدْوانُ بَعْضِهم علىٰ بعضٍ وهذا القِسْمُ لا يَتَجَاوَزُ اللَّهُ – تَعالَىٰ – عنْ أيِّ شيءٍ مِنْهُ مَهْما كانَ قليلاً ولا يَعْفو عن أهْلِهِ إلَّا إذا أسْقَطَهُ أصْحابُهُ وَتَجَاوَزُوا هُمْ عنه ، ولَيْسَ هذا القِصاصُ العادلُ في المُكلَّفينَ فقطْ بل حتَّىٰ في الحيواناتِ كما أخرج مسلمٌ في " صحيحه " (٢٥٨٢) والبُخاريُّ في " الأدَبِ المُفْرَدِ " (١٨٣) والترمذيُّ (٢٤٢٠) وأحمدُ في " المُسْنَد " (٢ / ٢٣٥) وأبو يَعلَىٰ (٦٥١٣) وابنُ حِبَّانَ في " صحيحه " (٧٣٦٣) وغيْرُهُم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – أنَّ النَّبِيَّ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ القِيامةِ حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ "*

أخرج الإمامُ أحمد في " مسنده " (٥/ ١٦٢) و الطَّيالِسِيُّ (٤٨٠) وصَحَّحه الألبانيُّ في الصَّحيحة (٤/ ١١٦ عقب ح١٥٨٨) عن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قال : رأىٰ رسولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – شَاتَيْنِ تَنْتَطِحانِ ، فَقَالَ لي : " يا أبا ذَرٍّ أتَدري فيما تنتطِحُ هاتانِ ؟ قُلْتُ : لا ، قال : " ولكنَّ ربَّكَ يَدْرِي ، وسَيَقْضِي بَيْنَهُما يَوم القيامةِ "

وأخرَجَ أحمد (١/ ٧٢) والبزَّار (٣٨٧) وغيْرُهُما عن عثمانَ بن عَفَّانَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – أنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – قالَ : " إنَّ الجَمَّاءَ لَتُقَصَّ مِن القَرْناءِ يومَ القِيَامَةِ " .

والجَمَّاءُ : هِيَ التي لا قَرْنَ لَهَا ، والقَرْناءُ : هي التي لها قُرُونٌ .

ولأجْلِ هذا القِصاصِ العادلِ يَبْعَثُ اللَّهُ – تعالَىٰ – البَهائمَ ويَحْشُرُهُم يومَ القِيامةِ كَما قالَ اللَّهُ – عَزَّوجَلَّ – : {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} [التَّكوير/٥] وقالَ – تعالَى – : {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام/٣٨]

هذا مع أنَّها لم تَكُنْ مُكلَّفةً في الدُّنيا ، ولا ثوابَ لها ولا عِقابَ علَيْها في الآخِرةِ ، ولا نَعيمَ ولا جَحِيمَ ، وإنَّما تُبْعَثُ وتُحْشَرُ للقَصاصِ العادلِ ثُمَّ يُقالُ لها : كوني تُراباً **

---

* قال النَّوَوِيُّ – رحمه اللَّهُ - في " شرح مسلم " (١٦/١٣٦-١٣٧) : هذا تَصْريحٌ بحشْرِ البَهائِمِ يومَ القِيامةِ وإعادتِها يَومَ القِيامَةِ كما يُعَادُ أهْلُ التَّكليفِ من الآدمِيّينَ وكما يُعَادُ الأطْفَالُ والمَجَانِينُ ومَنْ لَم تَبلُغْهُ دعوةٌ ، وعلى هذا تظاهَرتْ دلائلُ القُرآنِ والسُّنَّةِ : قال اللَّهُ – تَعَالَى - : { وإذا الوُحُوشُ حُشِرَتْ } [التَّكوير/٥] وإذا وردَ لَفْظُ الشَّرْعِ ولم يَمْنَعْ من إجْرائهِ على ظاهِرِه عَقْلٌ ولا شَرْعٌ وَجَبَ حَمْلُهُ عَلَى ظاهِرِهِ . قال العلماءُ : ولَيْسَ من شَرْطِ الحَشْرِ والإعادةِ في القِيامَةِ المُجازاةُ والعِقابُ والثَّوابُ ، وأمَّا القِصاصُ من القَرْناءِ والجَلْحاءِ فلَيْسَ هو في قِصاصِ التَّكليفِ إذْ لا تَكْلِيفَ عَلَيْها بل هو قِصاصُ مُقَابَلَةٍ . اهـ

** قال المَازَرِيُّ – رحمه اللَّه - : واضطَرَبَ العُلَماءُ في بَعْثِ البهائمِ ، وأقوى ما تَعلَّقَ به مَن يَقُولُ بِبَعْثِها قَولُهُ – تعالى - :

{ وإذا الوحوشُ حُشِرَتْ } [التَّكوير/٥] ، وأجابَ الآخَرُ : بأنَّ مَعْنى " حُشِرَتْ " : ماتت ، قال : والأحاديثُ الواردةُ في بَعْثِها آحَادُ تُفِيدُ الظَّنَّ ، والمَطْلُوبُ في المسألةِ القَطْعُ ! وحَمَلَ بَعْضُ شُيُوخِنا العَوْدَ المَذكورَ على أنَّهُ لَيْسَ حَقيقةً ، وإنَّما هو ضَرْبُ مَثَلٍ إعلاماً للخَلْقِ بأنَّها دارُ جزاءٍ لا يَبْقَى فِيها حَقٌّ عِند أحَدٍ ، ويَصِحُّ عِندي أنْ يَخْلُقَ اللَّهُ – تعالَى – هَذِهِ الحَرَكَةَ للبَهائِمِ يَومَ القِيامَةِ لِيَشْعُرَ أهْلُ المَحْشَرِ بما هُم صَائِرون إلَيْهِ من العَدْلِ ، وسُمِّيَ ذلك قصاصاً لا لأنَّهُ قصاصُ تكليفٍ ولكن على مَعنى قصاصِ المُقابلةِ والمُجازاةِ .

ومَنْ تَوقَّفَ في بَعْثِها إنَّما تَوَقَّفَ في القَطْعِ بذلكَ كما يُقطَعُ ببَعْثِ المُكَلَّفِينَ ، والأحاديثُ الواردةُ في ذلك ليستْ نُصُوصاً ولا مُتَواتِرةً ، ولَيْسَت المسألةُ عَمَلِيَّةً حَتَّى يُكْتَفَى فيها بالظَّنِّ . والأظهرُ حَشْرُ المخلوقاتِ كُلِّها بمجموعِ ظواهِرِ الآيِ والأحاديثِ ، ولَيْسَ من شَرْطِ الإعادةِ المُجازاةُ بعِقابٍ أو ثَوابٍ . اهـ

نقله عنه الأُبِّي " شرح مسلم " (٥٣٨/٨) وبنحْوِهِ في " إكمال المُعلم " للقاضي عِياض (٥١/٨)

وقالَ الدِّميريُّ في " حَياة الحَيَوانِ الكُبْري " (٢/ ٢٢٩–٢٣٠) : " فائدةٌ " : قال ابن دِحْيَةَ في كتاب " الآيات البَيِّنات " : اختلفَ النَّاسُ في حَشْر البهائم وفي جريان القصاص بينها ، فقال الشَّيخ أبو الحسن الأشعريُّ : لا يَجْري القصاصُ بين البَهائم لأنَّها غير مُكَلَّفةٍ ، وما وَرَدَ في ذلك من الأخْبَارِ نَحْوُ قَولِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – : « يُقْتَصُّ للجَمَّاءِ من القَرْناءِ ، ويُسْأَلُ العُودُ لِمَ خَدَشَ العُودَ » = فعلى سَبيلِ المَثَلِ والإخبارِ عَن شِدَّةِ التَّقَصِّي في الحِسابِ ، وأنَّه لا بُدَّ مِن أنْ يُقْتَصَّ للمَظْلومِ من الظَّالِمِ . وقالَ الأستَاذُ أبو إسْحاقَ الإسفِراييني : يَجْرِي القِصَاصُ بَيْنَها ، ويَحْتَمِلُ أنَّها كانَتْ تَعْقِلُ هَذا القَدرَ في دارِ الدُّنْيا .

قال ابنُ دِحْيَةَ : وهذا جارٍ على مُقْتَضَى العَقْلِ والنَّقْلِ لأنَّ البَهيمةَ تَعْرِفُ النَّفْعَ والضُّرَّ ، فتَنْفِرُ من العَصا وتُقْبِلُ للعَلَفِ ، ويَنْزَجِرُ الكلبُ إذا انْزجَرَ وإذا أشْلَى اسْتَشْلَى [أيْ : دعاه ليُنقذه من ضيقٍ أو هَلاكٍ أو دعاه لطعامٍ ونحوه] ، والطَّيْرُ والوَحْشُ تَفِرُّ من الجَوارحِ اسْتِدْفاعاً لشَرِّها .

فإن قيل : القِصَاصُ انْتقامٌ والبَهَائِمُ لَيْسَتْ بمُكَلَّفَةٍ ؟ فالجَوابُ : أنَّها غَيْرُ مُكَلَّفةٍ إلَّا أنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ في مُلْكِهِ ما أرادَ كما سَلَّطَ عَلَيْها في الدُّنْيا التَّسْخيرَ لِبَني آدمَ ، والذَّبْحَ لِمَا يُؤْكَلُ مِنها ، فلا اعْتِراضَ عَلَيْهِ – سُبْحانَهُ وتَعالى – .

وأيْضاً فإنَّ البَهائِمَ إنَّما يُقْتَصُّ مِنها لِبَعْضِها من بَعْضٍ إلَّا أنَّها لا تُطالَبُ بارتكابِ نَهْيٍ ولا بمُخالَفَةِ أمْرٍ لأنَّ هَذا مِمَّا خَصَّ اللَّهُ بِهِ العُقَلاءَ ، ولَمَّا كَثُرَ التَّنازُعُ رَجَعْنا لِمَا أَمَرَنَا بِهِ ربُّنا بِقَوْلِهِ : { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ } [النِّساء/٥٩] ووجَدْنا القُرآنَ العَظِيمَ يَدُلُّ على الإعادةِ في الجملةِ :

قال اللَّهُ – تَعالى - : { وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم } إلى قَوْلِهِ { ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام/٣٨] وقال – تعالى - : { وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ } والحَشْرُ في اللُّغَةِ الجَمْعُ .

وفي " الصَّحيحين " * عَن رسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وسلَّم - : « يُحْشَرُ النَّاسُ على ثلاثِ طرائقَ راغِبين راهبين ، واثنانِ على بعيرٍ ، وثلاثةٌ على بعيرٍ ، وعَشرةٌ على بعيرٍ ، وتَحْشُر بقِيَّتَهُم النَّارُ تَقِيلُ مَعَهُم حَيْثُ قالوا ، وتَبِيتُ مَعَهُم حَيْثُ باتوا وتُصْبِحُ مَعَهُم حَيْثُ أصْبَحُوا وتُمْسِي مَعَهُم حَيْثُ أمْسَوا » = فهذا يَدُلُّ عَلَى حَشْرِ الإبِلِ مع النَّاسِ ، وروى الإمامُ أحمدُ ** بسَنَدٍ صحيحٍ إلى أبي هريرة – رضِي اللَّهُ تعالى عنه - أنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم – قال : « يُقْتَصُّ للخَلْقِ بَعْضِهِم من بَعْضٍ ، حَتَّى للجَمَّاءِ من القرناءِ ، حتَّى للذَّرَّةِ من الذَّرَّةِ » فإذا كانت البَهائمُ والذَّرُّ يُقْتَصُّ مِنها فكيفَ يَغْفَلُ مَنْ هُو مُكَلَّفٌ مأمورٌ ؟ ونسألُ اللهَ السَّلامةَ من شُرورِ أنْفُسِنا وسَيِّئاتِ أعمالنا . وفي صحيح مسلم (٢٥٨٢) عن أبي هريرة – رضِيَ اللَّهُ تعالى عنه – أيْضاً أنَّ رسولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عليهِ وسَلَّم – قال : « لَتُؤَدُّنَّ الحُقوقَ إلى أهلها يومَ القيامةِ حَتَّى يُقادَ للشَّاةِ الجَلْحَاءِ من الشَّاةِ القَرْناءِ » ....

* أخرجه البخاريُّ (٦٥٢٢) مسلم (٢٨٦١) وغيرُهما عن أبي هُرَيْرةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – مرفوعاً .

** أخرجه الإمامُ أحمد (٢/ ٣٥و٣٢٣و٣٦٣و٤٤٢) عن أبي هُرَيْرةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – مَرْفوعاً .

فإذا كانَ هذا القِصاصُ العادلُ لا يَنجو منه حتَّىٰ البَهائمُ العجماواتِ فمابالُكَ بالظَّلَمةِ من بني آدَمَ مِمَّنْ قَهَروا النَّاسَ وأذَلُّوهُم واحتَقَروا الخَلْقَ وأهانوهم وعاشوا علىٰ أكتافِهِم ومَصِّ دمائهم ونَهْبِ ثرواتِهم وتَضْييعِ حُقُوقِهِم = فإنَّ اللَّهَ – تَعالَىٰ – لا يَتجاوزُ عن شيءٍ منه أبَداً !

أخْرَجَ البُخاريُّ (٢٤٤٩) وأحمد (٢/ ٤٣٥) والطَّحاويُّ في " شرح مُشْكِل الآثار " (١٨٩) وأبو نُعَيْمٍ في " الحلية " (٦/ ٣٤٣) وغيْرُهُم عن أبي هُريرةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قالَ : قال رسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسَلَّم - : " مَنْ كانَتْ له مَظْلَمَةٌ لأحَدٍ مِنْ عِرْضِهِ أو شيءٍ فلْيَتَحَلَّلْهُ منه

وفيه أيضاً وفي غيرِهِ * : « ما مِن صاحِبِ إبلٍ لا يُؤَدِّي منها حَقَّها إلَّا إذا كان يَومُ القيامةِ بُطِحَ لَها بقاعٍ قَرْقَرٍ ، ثُمَّ يُؤْتَى بها أوْفَرَ ما كانتْ ، لا يَفْقِدُ منها فَصيلاً واحِداً تَطَؤُهُ بأخفافها وتَعَضُّهُ بأفواهِها ... » الحديث بطُولِهِ .

وفي " صحيح البُخاريّ " ** : « لَيَأتِيَنَّ أحَدُكُم يَوْمَ القِيامَةِ بشاةٍ يَحْمِلُها على رقبتِهِ لَهَا ثُغاءٌ فيَقُولُ : يا مُحَمَّدُ ؟ فأقولُ : لا أمْلِكُ لك من اللَّهِ شَيْئاً قد بَلَّغْتُ » وصَحَّ عنه – صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم – أيضاً أنَّه قال : « مَا من دابَّةٍ إلَّا وهي مُصِيخةٌ يَوْمَ الجُمُعَةِ فَرَقَاً من قِيامِ السَّاعَةِ إلَّا الجِنَّ والإنْس » *** وإصاخَتُها بإلهامِ اللَّهِ إيَّاها في ذلك اليَومِ مَحمولٌ على ما جَبَلَها اللَّهُ – تَعالَى – عليه من تَوَقِّيها لِمَا يَضُرُّها وانْقِيادُها إلى ما يَنْفَعُها جِبِلَّةً لا عَقْلاً ، وإحْساساً حَيوانِياً لا إدراكاً فَهْمِيَّاً .

وإذا جَبَلَ اللَّهُ النَّملةَ على حَمْلِ قُوتِها وإدّخارِهِ لِزَمَنِ الشّتاءِ فَجَبْلُهُ البَهِيمةِ على الإصاخَةِ مُحاذرةَ يَوْمِ القيامةِ أوْلَى ، ومَنْ اسْتَقْرَى أحْوالَ الحَيَواناتِ رأى حِكْمةَ اللَّهِ فيها لَمَّا سَلَبَها العَقْلَ جَعَلَ لَها حِسَّاً تُفَرِّقُ بهِ بَيْنَ الضَّارِّ لها والنَّافِعِ ، وجَبَلَها على أشياءَ وألهمَها إيَّاها لا تُوجَدُ في الإنسانِ إلَّا بَعْدَ التَّعَلُّمِ وتَدْقِيقِ النَّظَرِ ، فمنها النَّحلةُ المُحْكِمةُ لتَسْديسِ مَخْزَنِ قُوتِها حينَ يَتَعَجَّبُ منه أهْلُ الهَنْدسةِ ، والعَنْكبوتِ المُتْقِنةِ لخُيوطِ بُيوتِها وتَناسُبِ دوائِرِها ، وكذلكَ السُّرْفَةُ – وهي دودة القَزِّ – في إحْكامِ بَيْتِها مُرَبَّعاً من عِيدانٍ ، وقد ظَهَرَتْ من البَهائِمِ الصَّنائِعُ العَجِيبةُ والأفاعِيلُ الغَريبةُ ، ولَمْ يَسْلُبْها رَبُّ العالَمِينَ سِوَى العِبارةِ عن ذلك والنُّطْقِ به ، ولو شاءَ أنْطَقَها كما أنْطَقَ النَّملةَ في عَهْدِ سُلَيْمانَ - على نَبِيّنا وعليهِ أفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامُ - ، والبَهيمُ من الخيلِ الذي لا شِيةَ فيه الذَّكَرُ والأنْثَى فيه سواءٌ ، والبُهْمُ من النِّعاجِ السُّودُ التي لا بَياضَ فيها وأمَّا قَولُهُ – صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم – في الحديثِ : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيامةِ بُهْماً »**** فمعناه : أنَّه لَيْسَ بِهِم شَيءٌ مِمَّا كان في الدُّنْيا نَحوُ البَرَصِ والعَرَجِ والعَمَى والعَوَرُ وغيرُ ذلك ، وإنَّما هِيَ أجْسادٌ مُصَحَّحةٌ لخُلودِ الأبَدِ في الجَنَّةِ أو النَّارِ ، وقيل : بل عُراةٌ لَيْسَ عَلَيْهِم من مَتاعِ الدُّنيا شيءٌ ، وهذا يُخالِفُ الأوَّلَ من حَيْثُ المَعْنى ، ومِنْ شِعْرِ مِسْعَرِ بنِ كِدامٍ أحد الأعلام :

نَهَارُكَ يا مَغْـرُورُ سَهْوٌ وغَفْلَةٌ *** ولَيْلُكَ نَـــومٌ والرَّدَى لكَ لازِمُ
وتَتْعَبُ فِيما سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّهُ *** كذلك في الدُّنْيا تَعِيشُ البَهائِمُ

---

* أخرجه مسلمٌ (٩٨٧) وأبو داود (١٦٦٠) والنَّسائيُّ في " المجتبى " (٢٤٤٢) وفي " الكُبْرَى (٢٢٣٤) وأحمد (٢/٢٦٢و٣٨٣و٤٨٩) وغيرُهُم من حديثِ أبي هُرَيْرَةَ – رضِيَ اللَّهُ عنه – .

** أخرجه البخاريُّ (٣٠٧٣) ومسلم (١٨٣١) وغيْرُهُما عن أبي هُريرةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه - .

*** أخرجه مالك في " المُوَطَّأ " (   ) أبو داود (١٠٤٦) والتِّرمذيُّ (٤٩١) والنَّسائيُّ في " الجمعة " (٤٥) وأحمد (٢/٤٨٦) وابنُ حِبَّانَ (٢٧٧٢) والحاكم (١/٢٧٨-٢٧٩) والبغويُّ (١٠٥٠) وغيْرُهُم عن أبي هُرَيْرةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه - .

**** أخرجه البخاريُّ في " الأدب المُفْرَد " (٩٧٠) وأحمد (٣/ ٤٩٥) والطَّبَرانِيُّ في " مُسْنَد الشَّامِيّين " (١٥٦) من حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ عن عبدِ اللَّهِ بنِ أُنَيْسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنهم – وفيه : قال : سَمِعْتُ رسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عليهِ وسَلَّم – يَقُولُ : " يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيامَةِ - أو قال : العِبادُ – عُراةً غُرْلاً بُهْماً " قال : قلنا : وما بُهْماً ؟ قال : " لَيْسَ مَعَهُم شَيءٌ " ... الحديث .

اليَومَ قبلَ أنْ لا يَكونَ دينارٌ ولا درهمٌ ، إنْ كانَ له عَمَلٌ صَالحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وإنْ لم تَكُنْ لهُ حَسَناتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئاتِ صَاحِبِهِ فحُمِلَ عليهِ "

ورَوَىٰ الإمامُ أحْمَدُ (٣/ ٤٩٥) والبخاريُّ في " الأدب المُفْرَد " (٩٧٠) وابن أبي عاصمٍ في " السُّنَّة " (٥١٤) وفي " الآحَادِ والمَثاني " (٢٠٣٤) والحاكم في " المُسْتَدْرك " (٢/ ٤٣٧) والطَّبراني في " مسند الشَّاميين " (١٥٦) والحارث بن أبي أسامة في " مُسْنَدِه " (٤٤ - البغية) وغَيْرُهُم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ أُنَيْسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم - يَقُولُ : " يُحْشَرُ النَّاسُ يَومَ القِيامَةِ - حُفاةً عُراةً غُرْلاً بُهْمًا - أيْ : لَيْسَ مَعَهُم شَيءٌ - ثُمَّ يُنَاديهم بصَوتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كما يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ : أنا المَلِكُ أنا الدَّيَّانُ ، لا يَنْبَغِي لأحَدٍ من أهْلِ النَّارِ أنْ يَدْخُلَ النَّارَ ولأحَدٍ من أهْلِ الجَنَّةِ عنده مَظْلَمَةٌ حَتَّىٰ أقْتَصَّ له منه حَتَّىٰ اللَّطْمَةُ ، ولا ينبَغِي لأحَدٍ من أهْلِ الجَنَّةِ أنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ ولأحَدٍ من أهْل النَّارِ عِنْدَهُ مَظْلَمةٌ حَتَّىٰ أقْتَصَّ له مِنْهُ حَتَّىٰ اللَّطْمَةُ " قالُوا : كَيْفَ ذلكَ يا رسُولَ اللَّهِ وإنَّما نأتِي اللَّهَ - عَزَّ وجَلَّ - يَومَ القِيامةِ حُفاةً عُراةً غُرْلاً بُهْمًا - أيْ : مَفالِيسُ من مَتَاعِ الدُّنْيا وأمْلاكِها - قال : " بالحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ "

زادَ الحاكمُ في روايَتِهِ : ثُمَّ قَرَأَ رسُولُ اللَّهِ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيه وسلَّم - قَولَهُ - تَعَالَىٰ - : {**الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**} [غافر/١٧]

وَالْوَزْنُ بِالْقِسْطِ فَلَا ظُلْمَ وَلَا *** يُؤْخَذُ عَبْدٌ بِسِوَىٰ مَا عَمِلا

فَبَيْنَ نَاجٍ رَاجِحٍ مِيزَانُهُ *** وَمُقْرِفٍ أَوْبَقَهُ عُدْوَانُهُ

حَتَّىٰ إنَّ المُؤمِنينَ يومَ القِيامةِ إذا وُزِنَتْ أعْمالُهم ورَجَحَتْ حَسَناتُهم علىٰ سَيِّئاتِهم وعَبَروا علىٰ الصِّراطِ ونَجَوْا من السُّقوطِ من عَلَيْهِ في النَّار حَبَسَهم اللَّهُ - تعالَىٰ - علىٰ هذه القَنْطَرةِ بيْنَ الجنَّة والنَّارِ يَتَقاصُّونَ مَظالِمَ كانَتْ بَيْنَهم ويُؤَدِّي بعضُهم حُقوقَ بعضٍ من الحسناتِ والسَّيِّئاتِ كما أخْرَجَه البُخاريُّ في " صحيحِهِ " (٦٥٣٥) وأحمد في " مُسْنده " (٣/ ١٣و٦٣و٧٤) والبغويُّ في " شرح السُّنَّة " (٤٣٦٤) والبَيْهَقِيُّ في " الشُّعَب " (٣٣٩) وغَيرُهُم عَن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ - : " يَخْلُصُ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ في الدُّنْيَا ، حَتَّىٰ إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ في دُخُولِ الجَنَّةِ ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لأَحَدُهُمْ أَهْدَىٰ بِمَنْزِلِهِ في الجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ في الدُّنْيَا " .

ولَرُبَّما فَنِيَتْ حَسناتُ العَبْدِ قَبْلَ أنْ يَقْضِيَ ما علَيْهِ فيَتَحَمَّلُ من سَيِّئاتِهم ثُمَّ يُرَدُّ مَرَّةً أخرَىٰ إلىٰ عذابِ النَّارِ بسَبَبِ كَثْرَةِ مَظالِمِهِ وحُقوقِ النَّاسِ علَيْهِ ! فيا حَسْرَتَهُ يَومَئذٍ وياَلخِزْيَهُ بيْنَ النَّاسِ ، وهذا هو المُفْلِسُ حقًا كما أخرجَه مسْلِمٌ في " صَحيحِه " (٢٥٨١) والتِّرْمِذِيُّ (٢٤١٨) وأحْمد (٢/ ٣٠٣و٣٣٤و٣٧١) وابنُ حِبَّانَ (٤٤١١و٧٣٥٩) وأبو يَعلَىٰ (٦٤٩٩) وغَيْرُهُم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : « أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ ؟ »

قَالُوا : المُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : « المُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا = فَيُعْطَىٰ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ " .

فهذا المَشؤومُ لم يَكُنْ مُهْملاً في الدُّنْيا ولم يَكُنْ مُضَيِّعًا لِعِباداتِهِ لكنَّهُ كانَ مُضَيِّعًا لحسناتِهِ كانَ يُصَلِّىٰ كعامَّةِ المُؤمنينَ وكانَ يَصُومُ كَصَومِهِم ، وكانَ يُنْفِقُ من حِلِّ مالِهِ لَمَّا بَخِلَ النَّاسِ بأموالِهِم ... وكانَ وكانَ ، ولكِنَّهُ أيْضًا كانَ يَعِيشُ فَوقَ رِقابِ الخَلْقِ لا يَمْنَعُهُ من ظُلْمِهِم مانعٌ ولا يَرْدَعُهُ عن أذِيَّتِهِم رادعٌ ، ويتجَرَّأُ علىٰ ضَرْبِهم وسفكِ دمائِهِم والعُدْوانِ علىٰ حَيَاتِهِم وحُرِّيَّاتِهِم ويَتطاوَلُ علىٰ أموالِهِم وأعراضِهِم بلا وازعٍ من دينٍ أو خُلُقٍ أو ضَميرٍ !

فيأتي هذا المشؤومُ يَومَ القِيامةِ بأعمالِهِ كُلِّها : بِحَسَناتِهِ وسَيِّئاتِهِ ، بعِباداتِهِ ومَظالِمِ النَّاسِ التي عِندَهُ فيُوقَفُ أمامَ مَنْ ظَلَمَهم ، ويُوَفِّي اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ من هَذا الظَّالِمِ المُتَغَطْرِسِ ، ويأخُذُ النَّاسُ مِن حَسناتِهِ حَتَّىٰ يَسْتَوفونَ حُقوقَهم وتشْتَفِي صُدورُهُم .فإذا فَنِيَتْ حَسناتُهُ وانْتَهَتْ قَبْلَ أنْ يُؤَدِّيَ كُلَّ ما عَلَيْهِ ولم تَتَبَقَّ لهُ حَسَنةٌ يَأخُذها النَّاسُ أُخِذَ مِن سَيِّئاتِهِم فَطُرِحَتْ علىٰ ظَهْرِهِ ، وأُخِذَ من خَطاياهُم ومعاصِيهِم ووُضِعَتْ في مِيزانِ سَيِّئاتِهِ !

فيُعَذَّبُ علىٰ سَيِّئةٍ لم يَفْعَلْها بنفْسِهِ ، ويُحاسَبُ علىٰ شَهْوةٍ مُحَرَّمَةٍ فَعَلَها غَيْرُهُ ، وأخْسَرُ النَّاسِ صفقةً مَن باعَ آخِرَتَهُ بدُنْيا غَيْرِهِ ، واللَّهُ المُستعانُ .

وما مثالُهُ إلَّا كالتَّاجِرِ الفاشِلِ الذي في يَدِهِ مائةُ مُليونٍ وعليهِديونٌ للنَّاسِ مئاتُ الملايينَ !

فالذي يَنْظُرُ إلَىٰ ظاهِرِ حالِهِ يَحْسَبُهُ غَنِيًّا ، والذي يَطَّلِعُ علَىٰ حقيقةِ حالِهِ يعلمُ أنَّهُ من جملةِ المَفاليسِ ، وأنَّ الأموالَ التي في يَدِهِ ليْسَتْ مُلْكًا لهُ علىٰ الحَقِيقةِ وإنَّما هي أموالُ النَّاسِ !

وأخرجَ الإمامُ البُخاريُّ في " الأدب المفرَدِ " (١٧١) ومُسلم في " صَحِيحِهِ " (١٦٥٩) وأبو داود (٥١٦٠) والتِّرْمِذِيُّ (١٩٤٨) عبد الرَّزَّاق في " المصنَّف " (١٧٩٥٩) أحمد في مُسْنَدِهِ " (٤/ ١٢٠) والطَّبرانيُّ في " الكبير " (١٧/ ٦٨٣و٦٨٤و ٦٨٥و٦٨٦) وغَيْرُهُم عن أبي مَسْعُودٍ البَدْرِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قالَ : كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامـًا لِي بالسَّوْطِ فَسَمِعْتُ صَوْتـًا مِنْ خَلْفِي : « اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ » فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي التَفَتُّ فإذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وإذَا هُوَ يَقُولُ : « اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ » قَالَ : فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي ، فَقَالَ : اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ ، أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَىٰ هَذَا الْغُلاَمِ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَهُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللَّهِ ! فَقَالَ : « أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ » أَوْ « لَلَفَحَتْكَ النَّارُ » قَالَ : فَحَلَفْتُ أَلَّا أَضْرِبَ مَمْلُوكـًا بَعْدَهُ أَبَداً .

(٠١) وَيُجْمَعُ الْخَلْقُ لِيَوْمِ الْفَصْلِ *** جَمِيعُــهُمْ عُلْوِيُّهُمْ وَالسُّفْلِي

(٠٢) فِي مَوْقِفٍ يَجِلُّ فِيهِ الْخَطْبُ *** وَيَعْظُمُ الْهَــوْلُ بِهِ وَالْكَــرْبُ

(٠٣) وَأُحْضِرُوا لِلْعَرْضِ وَالْحِسَابِ *** وَانْقَطَعَتْ عَلَائِــقُ الْأَنْسَــابِ

(٠٤) وَارْتَكَمَتْ سَحائِبُ الْأَهْــوَالِ *** وَانْعَجَمَ الْبَلِيـغُ فِي الْمَــقَــالِ

(٠٥) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْقَيُّــومِ *** وَاقْتُصَّ مِنْ ذِي الظُّلْمِ لِلْمَظْلُــومِ

(٠٦) وَسَاوَتِ الْمُلُـوكُ لِلْأَجْنَــادِ *** وَجِيءَ بِالْكِتَابِ وَالْأَشْهَــادِ

(٠٧) وَشَهِدَ الْأَعْضَــاءُ وَالْجَــوَارِحْ *** وَبَدَتِ السَّــوْءَاتُ وَالْفَضَــائِحْ

(٠٨) وَابْتُلِيَتْ هُنَـالِكَ السَّــرَائِــرْ *** وَانْكَشَفَ الْمَخْفِيُّ فِي الضَّمَائِرْ

(٠٩) وَنُشِرَتْ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ *** تُؤْخَذُ بِالْيَمِينِ وَالشِّمَــالِ

(١٠) طُوبَىٰ لِمَنْ يَأْخُذُ بِالْيَمِيـنِ *** كِتَابَهُ بُشْرَىٰ بِحُورٍ عِيــنِ

(١١) وَالْوَيْلُ لِلْآخِذِ بِالشِّمَــالِ *** وَرَاءَ ظَهْرٍ لِلْجَحِيمِ صَــالِي

مُسْلِم (٢٦١٣) وأبو داود (٣٠٤٧) والنَّسائيُّ في " الكبْرَىٰ " (٨٧١٨) وأحمد (٣/ ٤٠٤) وغيرُهُم عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ هِشَامِ بْنِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ قَالَ : مَرَّ بِالشَّامِ عَلَىٰ أُنَاسٍ وَقَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ وَصُبَّ عَلَىٰ رُؤُوسِهِمِ الزَّيْتُ ، فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قِيلَ : يُعَذَّبُونَ فِي الْخَرَاجِ ! فَقَالَ : أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ : " إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا .

وَرَوَىٰ ابْـنُ ماجـه في " سُنَنِهِ " (٢/ ١٣٢٩) وابـنُ حِبَّانَ في " صحيحِه " (٥٠٥٨) وأبـو يَعْلَىٰ في " مُسْنَدِه " (٢٠٠٣) وصحَّحه الألبانيُّ في " صحيح الجامع " (٤٥٩٨) وفي " مختصر العُلُو "

(٥٩) عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ الأنْصاريِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قَالَ : لَمَّا رَجَعَتْ مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ – أيْ : مُهَاجِرةُ الحَبَشَةِ – إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ لهم : « أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ؟ » قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ : بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ تَحْمِلُ عَلَىٰ رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ ، فَمَرَّتْ بِفَتىً مِنْهُمْ فَجَعَلَ إِحْدَىٰ يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ – سَقَطَتْ - عَلَىٰ رُكْبَتَيْهَا وانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا ،

وأخرجَ ابْنُ ماجَه في " سُنَنِهِ " (٤٠١٠) وابن حِبَّانَ (٥٠٥٨) وأبو يعلَىٰ (٢٠٠٣) وغَيْرُهُم عَنْ جَابِرِ بن عَبْدِ اللَّهِ – رَضِيَ اللَّهُ عنهما – قَالَ : لَمَّا رَجَعَتْ مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ – وهم مُهاجِرةُ الحَبَشَةِ – إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : « أَلا تُحَدِّثُونِي بِأَعَجَبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ؟ » قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ : بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ تَحْمِلُ عَلَىٰ رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ ، فَمَرَّتْ بِفَتىً مِنْهُمْ فَجَعَلَ إِحْدَىٰ يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَىٰ رُكْبَتَيْهَا فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا ، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ – أيْ : قامت – الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ : سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ يَومَ القِيامةِ وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَتَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ = فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ يَكُونُ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا !

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « صَدَقَتْ ، صَدَقَتْ ، كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ ؟! »

وكم في الدُّنْيا من أمثالِ هذا المُجْرِمِ الفاجِرِ ؟! لكِنَّهم الآنَ لا يَدفَعونَ في الظُّهورِ وإنَّما يَقْتُلُونَ الأبرياءَ بدمٍ باردٍ ويَسْفِكونَ الدَّمَ بلا حِسابٍ ويَقطَعونَ الأيديَ والأرْجُلِ ويَدوسونَ علىٰ الرُّؤوسِ !

(٠١) أَسَمِعْتَ بالإنْسَانِ يُنْفَـــخُ بَطْنُهُ *** حَتَّىٰ يُرَىٰ في هَيْئَةِ البَالـــونِ ؟!

(٠٢) أَسَمِعْتَ بالإنْسانِ يُضْغَطُ رَأسُـــهُ *** بالطَّوْقِ حَتَّىٰ يَنْتَهِي لجُنُونِ ؟!

(٠٣) أَسَمِعْتَ بالإنْسانِ يُشْعَـــلُ جِسْمُهُ *** نَارًا وقَدْ صَبَغُوهُ بالفِزْلِيـــنِ ؟!

(٠٤) أَسَمِعْتَ ما يَلْقَىٰ البَريءُ ويَصْطَلِي *** حَتَّىٰ يَقُولَ أنا المُسِيءُ خُذُوني ؟!

(٠٥) أَسَمِعْتَ بالآهَاتِ تَخْتَـــرِقُ الدُّجَىٰ *** رَبَّاهُ عَدْلَكَ إنَّهم قَتَلُـــوني ؟!

(٠٦) واسْأَلْ ثَرَىٰ الحَرْبِيِّ أو جُـدْرَانَهُ *** كَم مِنْ كَسِير فيهِ أو مَطْعُـونِ

(٠٧) وسَلِ السِّيَاطَ السُّودَ كَم شَـرِبَتْ دَمًا *** حَتَّىٰ غَدَتْ حُمْراً بلا تَلْـوِينِ

(٠٨) وسَلِ المُقَطَّمَ وهو أعْـدلُ شَاهِدٍ *** كَم من شَهِيدٍ في التِّلالِ دَفِيـنِ

(٠٩) قَتَلَتْهُ نُخْبَةُ مِصْرَ أبشَـعَ قِتْلَةٍ *** لا بالرَّصَاصِ ولا القَنَا المَسْنُونِ

(١٠) بَلْ عَلَّقُوهُ كالذَّبِيحَـةِ هُيِّئَتْ *** للقَطْعِ والتَّمْزيقِ بالسِّكِّيـنِ

(١١) وتَهَجَّدُوا فيه لَيَـالِيَ كُلُّها *** جَلْدٌ، وهُم في الجَلْدِ أهْلُ فُنُونِ !

(١٢) فإذا السِّياطُ عَجَـزْنَ عَنْ إنْطَاقِهِ *** فالكَيُّ بالنِّيرانِ خَيْرُ ضَمِيـنِ !

(١٣) قُل للعَواذلِ : إنْ رَمَيْتُـم مِصْرَنَا *** بتَخَلُّفِ التَّصْنِيعِ والتَّعْدِيـنِ

(١٤) مِصْرُ الحَديثَةُ قَد عَلَتْ وتَقَدَّمَتْ *** في صَنْعَةِ التَّعْذيبِ والتَّقْـريـنِ !

(١٥) وتَفَنَّنَتْ – كَي لا يَمَـلَّ مُعَـذَّبٌ *** في العَرْضِ والإخْراجِ والتَّلْـويـنِ !

(١٦) أتُرَىٰ أولئـكَ يَنْتَـمُـون لآدمٍ *** أمْ هُم مَـلاعِينُ بَنُـو مَلْعُـونِ؟

(١٧) لا تَحْسَبُوهُم مُسْلِمينَ مِن اسْمِهِم *** لا دِينَ فِيهِم غيـرُ سَبِّ الدِّينِ

(١٨) لا دِينَ يَرْدَعُ لا ضَمِيـرَ مُحَاسِبٌ *** لا خَوفَ شَعْبٍ لا حِمَىٰ قَانُـونِ

(١٩) مَنْ ظَنَّ قَانونًا هُنـاكَ فإنَّمـا *** قانونُهم هُو حَمْـزةُ البَسْيُـوني

(٢٠) أحْداثُ عَهْدِ عِصَابَـةٍ حَكَمُوا *** بَنِي مِصْرَ بلا خُلُقٍ ولا قانُـونِ

(٢١) أنْسَتْ مَظَالِمُهُمْ مَظالِمَ مَنْ خَلَوْا *** حَتَّىٰ تَرَحَّمَنا عَلَىٰ نَيْـرُونِ

(٢٢) حَسِبُوا الزَّمَـانَ أصَمَّ أعْمَىٰ عَنْهُمُ *** قَدْ نَوَّمُوهُ بخُطْبَـةٍ وطَنِيـنِ

(٢٣) وكَفَىٰ بِرَبِّكَ للخَليقَـةِ مُحْصِيًا *** في لَوْحِهِ وكِتَابِـهِ المَكْنُـونِ

وبِسَبَبِ شؤمِ الظُّلـمِ وسُوءِ عاقبةِ أهْلِهِ أرادَ النَّبيُّ – صلَّىٰ اللَّهُ عليهِ وسلَّم – ألَّا يَلْقَىٰ اللَّهَ – عزَّ وجلَّ – وفي عُنُقِهِ مَظْلَمَةٌ لأحَدٍ ، بلْ نادىٰ في النَّاسِ أنَّ مَنْ كانَتْ لهُ مَظْلَمةٌ عندَهُ – صلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – فلْيَأْتِهِ لِيَقْتَصَّ بقَدْرِ مظْلَمتِهِ ! وأخْرَجَ أبو داود (٣٤٥٣) والتِّرمذيُّ (١٣١٤) وابنُ ماجه (٢٢٠٠) وأحمد (٣/ ١٥٦) وغيْرُهُم عن أنسِ بنِ مالِكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قالَ : غَلا السِّعْرُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْه وسَلَّم – فَقالوا : يا رسُولَ اللَّهِ غَلا السِّعْرُ فَلَوْ سَعَّرْتَ لَنا ؟ فقال رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – : " إنَّ اللَّهَ هُو الخَالِقُ القَابِضُ البَاسِطُ الرَّازِقُ المُسَعِّرُ ، وإني لأرجو أن ألقَي اللَّهَ ولا يَطْلُبُنِي أحَدٌ مِنكم بمَظْلَمَةٍ ظَلَمْتُها إيَّاهُ في دمٍ ولا مَالٍ " .

وأخْرَجَ عبْد الرَّزَّاق في " مُصَنَّفِهِ " (٩/ ٤٦٩) والطَّبَرانيُّ في " المُعْجَم الأوسَط " (٢٦٢٩) وفي " الأحاديث الطُّوالِ " (٣٨) والبَيْهَقِيُّ في " دلائل النُّبُوَّة " (٧/ ١٧٩) وغيْرُهُم عَنِ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنهما – قَالَ : جَاءَنِي رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ فَوَجَدْتُهُ مَوْعُوكاً قَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ فَقَالَ : « خُذْ بِيَدِي يَا فَضْلُ » فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَىٰ الْمِنْبَرِ فَجَلَسَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لِي : « صِحْ فِي النَّاسِ » فَصِحْتُ فِي النَّاسِ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ – عَزَّ وَجَلَّ – وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ قَدْ دَنَا مِنِّي حُقُوقٌ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ فَمَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْراً فَهَذَا ظَهْرِي فَلْيَسْتَقِدْ مِنْهُ ، وَمَنْ كُنْتُ شَتَمْتُ لَهُ عِرْضاً فَهَذَا عِرْضِي فَلْيَسْتَقِدْ مِنْهُ ، وَمَنْ كُنْتُ أَخَذْتُ لَهُ مَالاً فَهَذَا مَالِي فَلْيَسْتَقِدْ مِنْهُ ولا يَقُولَنَّ رَجُلٌ : إِنِّي أَخْشَىٰ الشَّحْنَاءَ مِنْ قِبَلِ رَسُولِ اللَّهِ ، أَلَا وَإِنَّ الشَّحْنَاءَ لَيْسَتْ مِنْ طَبِيعَتِي وَلَا مِنْ شَأْنِي ، أَلَا وإِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ مَنْ أَخَذَ حَقّاً إِنْ كَانَ أَوْ حَلَّلَنِي فَلَقِيتُ اللَّهَ وَأَنَا طَيِّبُ النَّفْسِ ، أَلَا وَإِنِّي لا أَرَىٰ ذَلِكَ بِمُغْنٍ عَنِّي حَتَّىٰ أَقُومَ فِيكُمْ مِرَاراً » ثُمَّ نَزَلَ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَصَلَّىٰ الظُّهْرَ ثُمَّ عَادَ إِلَىٰ الْمِنْبَرِ ، فَعَادَ إِلَىٰ مَقَالَتِهِ فِي الشَّحْنَاءِ وَغَيْرِهَا ، ثُمَّ قَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَلْيَرُدَّهُ ، وَلا يَقُولُ : فُضُوحُ الدُّنْيَا ! أَلا وَإِنَّ فُضُوحَ الدُّنْيَا خَيْرٌ مِنْ فُضُوحِ الآخِرَةِ »

فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي عِنْدَكَ ثَلاثَةَ دَرَاهِمَ !

فَقَالَ : « أَمَا إِنَّا لا نُكَذِّبُ قَائِلاً وَلا نَسْتَحْلِفُهُ عَلَىٰ يَمِينٍ ، فَلِمَ صَارَتْ لَكَ عِنْدِي ؟ »

قَالَ : تَذْكُرُ يَوْمَ مَرَّ بِكَ السَّائِلُ فَأَمَرْتَنِي فَدَفَعْتُ إِلَيْهِ ثَلاثَةَ دَرَاهِمَ ؟ قَالَ : « ادْفَعْهَا إِلَيْهِ يَا فَضْلُ »

ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ عِنْدِي ثَلاثَةُ دَرَاهِمَ كُنْتُ غَلَلْتُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ !

قَالَ : « وَلِمَ غَلَلْتَهَا ؟ » قَالَ : كُنْتُ مُحْتَاجاً إِلَيْهَا ! قَالَ : « خُذْهَا مِنْهُ يَا فَضْلُ " ... الحديث* .

وأخْرَجَ أبو داود (٣٤٥٣) والتِّرمذيُّ (١٣١٤) وابنُ ماجه (٢٢٠٠) وأحمد (٣/ ١٥٦) وغيْرُهُم عن أنسِ بنِ مالِكٍ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قال : غَلا السِّعْرُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْه وسَلَّم – فَقالوا : يا رسُولَ اللَّهِ غَلا السِّعْرُ فَلَوْ سَعَّرْتَ لَنا ؟ فقال رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عليْهِ وسلَّم – : " إنَّ اللَّهَ هُو الخَالِقُ القَابِضُ البَاسِطُ الرَّازِقُ المُسَعِّرُ ، وإني لأرجو أن ألقَى اللَّهَ ولا يَطْلُبُنِي أحَدٌ مِنكم بِمَظْلَمَةٍ ظَلَمْتُها إيَّاهُ في دمٍ ولا مَالٍ " .

---

* وانظر : " السِّلْسِلَة الضَّعيفة " للألباني (١٣/ ٦٤٣ رقم ٦٢٩٧) .

وظُلْمُ النَّاسِ بَعْضِهِم لبعضٍ وعُدْوانُ بَعْضِهِم عَلَىٰ بَعْضٍ لَهُ صُوَرٌ كثيرةٌ، منها :

الأولَىٰ : تَسَلُّطُ الأقوياءِ عَلَىٰ الضُّعَفَاءِ وإخْراجُهُم من ديارِهِم : وهذا مَنْهَجٌ عامٌّ للظَّلَمَةِ المُجْرِمِين والفَجَرةِ الكافرين كما حكىٰ اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – عنهم في قولِهِ – تَعالَىٰ – : {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} [إبراهيم/١٣]

أيْ : لَيَكُونَنَّ أحَدُ هَذينِ الأمرَيْنِ : إمَّا أنْ نُخْرِجَكُم من بلادِكُم ونُهَجِّرَكُم مِن ديارِكُم ونُشَرِّدَكُم في الأرضِ، وإمَّا أنْ تَدْخُلوا في مِلَّتِنا ودينِنا وتُوافِقونا علىٰ طَريقتِنا وسُلُوكِنا وألَّا تَعْتَرِضُوا علىٰ شيءٍ من سُنَّتِنا وخُطَطِنا، فاختاروا أنْتُم لأنْفُسِكم !

وقالَ اللَّهُ – تعالَى – : {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} [الأعْراف/٨٨]

أيْ : قالَ هؤلاءِ المجرمونَ المُتَكَبِّرونَ المُتَمَرِّدونَ في الأرضِ والغالُونَ في الكفرِ لنَبيِّ اللَّهِ شُعَيْبٍ – عَلَيْهِ السَّلام – والذينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعوهُ علَىٰ دينِهِ = قَالُوا لَهُم : لا تَعَايُش بَيْنَنا وبَيْنَكم، ولا صَداقةَ بيْنَ مَنْهَجِنا ودينِكُم، ونَحْنُ شَعْبٌ وأنْتُم شَعْبٌ آخَرَ، والأرْضُ لا تَسَعُنا وإيَّاكم ما دُمْتُم مُصِرِّينَ عَلَىٰ دِينِكُم = فإمَّا أنْ نَطْرُدَكُم من بلادِنَا ونَسْتَريحَ مِنْ خِلافِكم ومُعارضاتِكم وإمَّا أنْ تَدْخُلوا في دينِنا وتُكَمِّموا أفواهَكُم وتَكونوا تابعينَ لنا في أهوائنا وآرائنا كالعَبيدِ عندنا !

وكذلكَ قالَ قومُ لوطٍ – علَيْهِ – وتواصَوْا علَىٰ إخْراجِهِ ومَنْ آمَنَ مَعه كما قالَ اللَّهُ – عزَّ وجلَّ – : {وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [الأعْراف/ ٨٢]

يا تُرَىٰ ما هيَ جريمةُ لوطٍ عَلَيْهِ السَّلام – ومَن مَعَهُ من المؤمنين ؟ كُلُّ جريمتِهِم أنَّهم أطْهَارٌ يَخافونَ ربَّهم ويَسْتَعْفِفون عن هذه الفواحِشِ ولا يُشاركونَ هؤلاء الأنْجاسِ المَناكيدِ في هذه القاذوراتِ الأخلاقِيَّةِ والمُمارساتِ البَهيمِيَّةِ = فلذلك أرادَ هؤلاء الكُفَّارِ الفَجَرَةِ أنْ يُخْرِجُوهُم من ديارِهِم وأنْ يَطْرُدوهُم مِنْ بلادِهِم وأنْ يُشَرِّدوهُم في الأرضِ !

وقَد رُوِيَ عن عُثْمانَ بنِ عَفَّانَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – أنَّه قالَ : ودَّت الزانيةُ لو أنَّ النِّساءَ كُلَّهُنَّ زَنَيْنَ !

أيْ : لِئلَّا يَكونَ هُناكَ مَنْ يُذَكِّرُهَا بالعَفافِ والطُّهْرِ ولئلَّا تُعَيَّرَ هِيَ بزِناها !

وكذلكَ المُسْلِمون الأوائلُ من هذه الأمَّةِ أخْرِجوا من ديارِهِم وطُرِدوا من بلادِهِم وهُجِّروا من أوطانِهم كما قال – عزَّ وجلَّ – : {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} [الحج/٤٠]

وكذلكَ قالَ اللَّهُ – عزَّ وجَلَّ – مُعَزِّيًا للرَّسولِ – صَلَّىٰ اللَّهُ علَيْهِ وسلَّم – ومُسَلِّيًا له ومُخَفِّفًا عنه شِدَّةَ عداوةِ قومِهِ لهُ وقَسْوتِهم عليْهِ فقالَ – عزَّ مِنْ قائلٍ – : {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ }محمد١٣

لباب التأويل في معاني التنزيل - الخازن (٤/ ١٠٧، بترقيم الشاملة آليا)

يعني ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم أيها الرسل من بلادنا وأرضنا وإما عودكم في ملتنا . فإن قلت : هذا يوهم بظاهره أنهم كانوا علىٰ ملتهم في أول الأمر حتىٰ يعود فيها قلت : معاذ الله ولكن العود هنا بمعنىٰ الصيرورة وهو كثير في كلام العرب ، وفيه وجه آخر ، وهو أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل الرسالة لم يظهروا خلاف أممهم ، فلما أرسلوا إليهم أظهروا مخالفتهم ودعوا إلىٰ الله فقالوا لهم : لتعودن في ملتنا ظنًا منهم أنهم كانوا علىٰ ملتهم ثم خالفوهم وإجماع الأمة علىٰ أن الرسل من أول الأمر إنما نشؤوا علىٰ التوحيد لا يعرفون غيره . اهـ

إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم - أبو السعود (٤/ ٢٥، بترقيم الشاملة آليا)

{ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ } لعل هؤلاء القائلين بعضُ المتمردين العاتين الغالين في الكفر من أولئك الأممِ الكافرة التي نُقِلت مقالاتُهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيبٍ وأضرابِهم ولذلك لم يُقل وقالوا { لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِىْ مِلَّتِنَا } لم يقنَعوا بعصيانهم الرسلَ ومعاندتهم الحقَّ بعد ما رأوا البيناتِ الفائتةَ للحصر حتىٰ اجترأوا علىٰ مثل هاتيك العظيمةِ التي لا يكاد يحيط بها دائرةُ الإمكانِ فحلفوا علىٰ أن يكون أحدُ المُحالَيْن ، والعَودُ إما بمعنىٰ مطلق الصيرورة أو باعتبار تغليبِ المؤمنين علىٰ الرسل ، . اهـ

شرح السنة للبغوي (١/ ٤٨-٤٩)

بَابُ حَلاوَةِ الإِيمَانِ وَحُبِّ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَرَسُولِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} [الْبَقَرَة: ١٦٥]، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات: ٧]، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ} [التَّوْبَة: ٢٤] الآيَةَ، وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: {لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ} [الْوَاقِعَة: ٧٩]: لا يَجِدُ طَعْمَهُ وَنَفْعَهُ إِلا مَنْ

آمَنَ بِالْقُرْآنِ، وَلا يَحْمِلُهُ بِحَقِّهِ إِلا الْمُوقِنُ، لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} [الْجُمُعَة: ٥].

٢١ – قَالَ الشَّيْخُ الْحُسَيْنُ بْنُ مَسْعُودٍ، رَحِمَهُ اللهُ: أَنا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ، أَنا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ النُّعَيْمِيُّ، أَنا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، نَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، نَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، نَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: " ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ ". هَذَا حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَىٰ صِحَّتِهِ وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، عَن مُحَمَّدِ بْنِ مُثَنَّىٰ، وَمُحَمَّدِ بْنِ بَشَّارٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ شُعْبَةَ.

وَقَوْلُهُ: «مَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ»، فَالْعَوْدُ: قَدْ يَكُونُ بِمَعْنَىٰ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ بَعْدَ مَا دَخَلَ فِي الإِسْلامِ، وَقَدْ يَكُونُ بِمَعْنَىٰ الْمَصِيرِ إِلَيْهِ ابْتِدَاءً، وَمِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي قِصَّةِ شُعَيْبٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [سُورَة الأَعْرَاف ٨٨] قَالَ قَوْمٌ مَعْنَاهُ: لَتَصِيرُنَّ إِلَىٰ مِلَّتِنَا، لأَنَّ شُعَيْبًا لَمْ يَكُنْ قَطُّ فِي الْكُفْرِ.

وَقِيلَ: الْخِطَابُ مَعَ أَصْحَابِ شُعَيْبٍ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي دِينِهِ وَاتَّبَعُوهُ بَعْدَ مَا كَانُوا كُفَّارًا. اهـ

تفسير البغوي – طيبة (٣/ ٢٥٧)

فَإِنْ قِيلَ: مَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: "أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا"، "وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا"، وَلَمْ يَكُنْ شُعَيْبٌ قَطُّ عَلَىٰ مِلَّتِهِمْ حَتَّىٰ يَصِحَّ قَوْلُهُمْ تَرْجِعُ إِلَىٰ مِلَّتِنَا؟

تفسير البغوي – طيبة (٣/ ٢٥٨)

قِيلَ: مَعْنَاهُ: أَوْ لَتَدْخُلَنَّ فِي مِلَّتِنَا، فَقَالَ: وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَدْخُلَ فِيهَا.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِنْ صِرْنَا فِي مِلَّتِكُمْ. وَمَعْنَىٰ عَادَ صَارَ.

وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِ قَوْمَ شُعَيْبٍ لِأَنَّهُمْ كَانُوا كُفَّارًا فَآمَنُوا فَأَجَابَ شُعَيْبٌ عنهم.

تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٤٢٧)

وقولهم أو لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا معناه أو لتصيرن، وعاد: تجيء في كلام العرب علىٰ وجهين. أحدهما عاد الشيء إلىٰ حال قد كان فيها قبل ذلك، وهي علىٰ هذه الجهة لا تتعدىٰ فإن عديت فبحرف، ومنه قول الشاعر: [السريع]

إن عادت العقرب عدنا لها ... وكانت النعل لها حاضرة

تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٤٢٨)

ومنه قول الآخر: [الطويل]

ألا ليت أيام الشباب جديد ... وعصرا تولّىٰ يا بثين يعود

ومنه قوله تعالىٰ: وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا [الأنعام: ٢٨] ومنه قول الشاعر: [الطويل]

فإن تكن الأيام أحسن مرة ... إليّ فقد عادت لهنّ ذنوب

والوجه الثاني أن تكون بمعنىٰ صار وعاملة عملها ولا تتضمن أن الحال قد كانت متقدمة. ومن هذه قول الشاعر: [البسيط]

تلك المكارم لاقعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

ومنه قول الآخر: [الرجز] وعاد رأسي كالثغامة ومنه قوله تعالىٰ: حَتَّىٰ عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ [يس: ٣٩] علىٰ أن هذه محتملة، فقوله في الآية أو لَتَعُودُنَّ وشُعَيْبُ عليه السلام لم يكن قط كافرا يقتضي أنها بمعنىٰ صار، وأما في جهة المؤمنين بعد كفرهم فيترتب المعنىٰ الآخر ويخرج عنه «شعيب» إلا أن يريدوا عودته إلىٰ حال سكوته قبل أن يبعث، وقوله أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ توقيف منه لهم علىٰ شنعة المعصية وطلب أن يقروا بألسنتهم بإكراه المؤمنين بالله علىٰ الإخراج ظلما وغشما.

والظاهر في قوله: قَدِ افْتَرَيْنا عَلَىٰ اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ أنه خبر منه أي لقد كنا نواقع عظيما ونفتري علىٰ الله الكذب في الرجوع إلىٰ الكفر، ويحتمل أن يكون علىٰ جهة القسم الذي هو في صيغة الدعاء، مثل قول الشاعر: بقيت وفري.

وكما تقول «افتريت علىٰ الله» إن كلمت فلانا، وافْتَرَيْنا معناه شققنا بالقول واختلفنا. ومنه قول عائشة: من زعم أن محمدا صلىٰ الله عليه وسلم رأىٰ ربه فقد أعظم علىٰ الله الفرية، ونجاة «شعيب» من ملتهم كانت منذ أول أمره، ونجاة من آمن معه كانت بعد مواقعة الكفر، وقوله: إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ يحتمل أن يريد إلا أن يسبق علينا من الله في ذلك سابق وسوء وينفذ منه قضاء لا يرد.

قال القاضي أبو محمد: والمؤمنون هم المجوزون لذلك وشعيب قد عصمته النبوة، وهذا أظهر ما يحتمل القول، ويحتمل أن يريد استثناء ما يمكن أن يتعبد الله به المؤمنين مما يفعله الكفار من القربات، فلما قال لهم: إنا لا نعود في ملتكم ثم خشي أن يتعبد الله بشيء من أفعال الكفرة فيعارض ملحد بذلك ويقول: هذه عودة إلىٰ ملتنا استثنىٰ مشيئة الله تعالىٰ فيما يمكن أن يتعبد به ويحتمل أن يريد بذلك معنىٰ الاستبعاد كما تقول: لا أفعل كذا حتىٰ يشيب الغراب وحتىٰ يلج الجمل في سم الخياط، وقد علم امتناع ذلك فهو إحالة علىٰ مستحيل.

قال القاضي أبو محمد: وهذا تأويل إنما هو للمعتزلة الذين من مذهبهم أن الكفر والإيمان ليسا

تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٤٢٩)

بمشيئة من الله تعالىٰ فلا يترتب هذا التأويل إلا عندهم، وهذا تأويل حكاه المفسرون ولم يشعروا بما فيه، وقيل: إن هذا الاستثناء إنما هو تستر وتأدّب.

قال القاضي أبو محمد: ويقلق هذا التأويل من جهة استقبال الاستثناء ولو كان في الكلام إن شاء الله قوىٰ هذا التأويل، وقوله: وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً معناه: وسع علم ربنا كل شيء كما تقول: تصبب زيد عرقا أي تصبب عرق زيد، ووَسِعَ بمعنىٰ أحاط، وقوله: افْتَحْ معناه أحكم والفاتح والفتاح القاضي بلغة حمير، وقيل بلغة مراد، وقال بعضهم: [الوافر]

ألا أبلغ بني عصم رسولا ... فإني عن فتاحتكم غنيّ

وقال الحسن بن أبي الحسن: إن كل نبي أراد الله هلاك قومه أمره بالدعاء عليهم ثم استجاب له فأهلكهم، وقال ابن عباس ما كنت أعرف معنىٰ هذه اللفظة حتىٰ سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها: تعال أفاتحك أي أحاكمك، وقوله عَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلْنا استسلام لله وتمسك بلفظه وذلك يؤيد التأويل الأول في قوله: إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ.

والظُّلمُ مَعصِيةٌ شؤمٌ ، وهو بِضاعةُ الهَلْكَي من الخلْقِ ورؤوسُ أموالِ المفالِيسِ من النَّاسِ :

أخرجَ مسْلِمٌ في " صَحيحِه " (٢٥٨١) والتِّرْمِذِيُّ (٤/ ٦١٣) وأحْمد (٢/ ٣٠٣و٣٣٤و٣٧١) وابنُ حِبَّانَ (٤٤١١و٧٣٥٩) وأبو يَعلَىٰ (٦٤٩٩) وغَيْرُهُم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : « أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ ؟ »

قَالُوا : المُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : « المُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا = فَيُعْطَىٰ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَىٰ مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ " .

فهذا المَشؤومُ لم يَكُنْ مُهْملاً في الدُّنْيا ولم يَكُنْ مُضَيِّعًا لِعباداتِهِ لكنَّهُ كانَ مُضَيِّعًا لحسناتِهِ كانَ يُصَلِّىٰ كعامَّةِ المُؤمنينَ وكانَ يَصُومُ كَصَومِهِم ، وكانَ يُنْفِقُ من حِلِّ مالِهِ لَمَّا بَخِلَ النَّاسِ بأموالِهِم ... وكانَ وكانَ ، ولكِنَّهُ أيْضًا كانَ يَعِيشُ فَوقَ رِقابِ الخَلْقِ لا يَمْنَعُهُ من ظُلْمِهِم مانعٌ ولا يَرْدَعُهُ عن أذِيَّتِهِم رادعٌ ، ويتجَرَّأُ علىٰ ضَرْبِهم وسفكِ دمائِهِم والعُدْوانِ علىٰ حَيَاتِهِم وحُرِّيَّاتِهِم ويَتطاوَلُ علىٰ أموالِهِم وأعراضِهِم بلا وازعٍ من دينٍ أو خُلُقٍ أو ضَميرٍ !

فيأتي هذا المشؤومُ يَومَ القِيامةِ بأعمالِهِ كُلِّها : بِحَسَناتِهِ وسَيِّئاتِهِ ، بعِباداتِهِ ومَظالِمِ النَّاسِ التي عِندَهُ فيُوقَفُ أمامَ مَنْ ظَلَمَهم ، ويُوَفِّي اللَّهُ – عزَّ وجلَّ - كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ من هَذا الظَّالمِ المُتَغَطْرِسِ ، ويأخُذُ النَّاسُ مِن حَسناتِهِ حَتَّىٰ يَسْتَوفونَ حُقوقَهم وتشْتَفِي صُدورُهُم .فإذا فَنِيَتْ حَسناتُهُ وانْتَهَتْ قَبْلَ أنْ يُؤَدِّيَ كُلَّ ما عَلَيْهِ ولم تَتَبَقَّ لهُ حَسَنةٌ يَأخُذها النَّاسُ أُخِذَ مِن سَيِّئاتِهِم فَطُرِحَتْ علىٰ ظَهْرِهِ ، وأُخِذَ من خَطاياهُم ومعاصِيهِم ووُضِعَتْ في مِيزانِ سَيِّئاتِهِ ! فيُعَذَّبُ علىٰ سَيِّئةٍ لم يَفْعَلْها بنفْسِهِ ، ويُحاسَبُ علىٰ شَهْوةٍ مُحَرَّمَةٍ فَعَلَها غَيْرُهُ ، وأخْسَرُ النَّاسِ صفقةً مَن باعَ آخِرَتَهُ بدُنْيا غَيْرِهِ ، واللَّهُ المُستعانُ .

وما مثالُهُ إلَّا كالتَّاجِرِ الفاشِلِ الذي في يَدِهِ مائةُ مُليونٍ وعليهِديونٌ للنَّاسِ مئاتُ الملايينَ ! فالذي يَنْظُرُ إلَىٰ ظاهِرِ حالِهِ يَحْسَبُهُ غَنِيًّا ، والذي يَطَّلِعُ علَىٰ حقيقةِ حالِهِ يعلمُ أنَّهُ من جملةِ المَفاليسِ ، وأنَّ الأموالَ التي في يَدِهِ ليْسَتْ مُلْكًا لهُ علىٰ الحَقِيقةِ وإنَّما هي أموالُ النَّاسِ !

أخرجَ ابْنُ ماجَه في " سُنَنِهِ " (٤٠١٠) وابن حِبَّانَ (٥٠٥٨)وأبو يعلَىٰ (٢٠٠٣) وغَيْرُهُم عَنْ جَابِر بن عَبْدِ اللَّهِ – رَضِيَ اللَّهُ عنهما – قَالَ : لَمَّا رَجَعَتْ مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ – وهم مُهاجِرةُ الحَبَشَةِ – إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : « أَلا تُحَدِّثُونِي بِأَعَجَبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ؟ » قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ : بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ تَحْمِلُ عَلَىٰ رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ ، فَمَرَّتْ بِفَتىً مِنْهُمْ فَجَعَلَ إِحْدَىٰ يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَىٰ رُكْبَتَيْهَا فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا ، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ – قامت – الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ : سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ يَومَ القِيامةِ وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَتَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ = فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ يَكُونُ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا !

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : « صَدَقَتْ ، صَدَقَتْ ، كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ ؟! »

وكم في الدُّنيا من أمثالِ هذا المُجْرِمِ الفاجِرِ ؟! لكِنَّهم الآنَ لا يَدفَعونَ في الظُّهورِ وإنَّما يَقْتُلُونَ الأبرياءَ بدمٍ باردٍ ويَسْفِكونَ الدَّمَ بلا حِسابٍ ويَقطَعونَ الأيديَ والأرْجُلِ ويَدوسونَ علىٰ الرُّؤوسِ !

أَسَمِعْتَ بالإنْسَانِ يُنْفَـــــخُ بَطْنُهُ *** حَتَّىٰ يُرَىٰ في هَيْئَةِ البَالـــونِ ؟!

أَسَمِعْتَ بالإنْسانِ يُضْغَطُ رَأسُـــهُ *** بالطَّوْقِ حَتَّىٰ يَنْتَهِي لجُنُونِ ؟!

أَسَمِعْتَ بالإنْسانِ يُشْعَـــلُ جِسْمُهُ *** نَارًا وقَدْ صَبَغُوهُ بالفِزْلِيـــنِ ؟!

أَسَمِعْتَ ما يَلْقَىٰ البَرِيءُ ويَصْطَلِي *** حَتَّىٰ يَقُولَ أنا المُسِيءُ خُذُونِي ؟!

أَسَمِعْتَ بالآهَاتِ تَخْتَـرِقُ الدُّجَىٰ *** رَبَّاهُ عَدْلَكَ إنَّهم قَتَلُـــوني ؟!

واسْأَلْ ثَرَىٰ الحَرْبِيِّ أو جُـــــدْرَانَهُ *** كَم مِنْ كَسِير فيهِ أو مَطْعُـــونِ

وسَلِ السِّيَاطَ السُّودَ كَم شَـرِبَتْ دَمـًا *** حَتَّىٰ غَدَتْ حُمْراً بلا تَلْـــوِينِ

وسَلِ المُقَطَّمَ وهو أعْـــدلُ شَاهِدٍ *** كَم من شَهِيدٍ في التِّلالِ دَفِيــــنِ

قَتَلَتْهُ نُخْبَةُ مِصْرَ أبشَـــــعَ قِتْلَةٍ *** لا بالرَّصَاصِ ولا القَنَا المَسْنُـونِ

بَلْ عَلَّقُوهُ كالذَّبِيحَـــــةِ هُيِّئَتْ *** للقَطْعِ والتَّمْزيقِ بالسِّكِّيـــنِ

وتَهَجَّدُوا فيه لَيَـــــالِيَ كُلُّها *** جَلْدٌ ، وهُم في الجَلْدِ أهْلُ فُنُـونِ !

فإذا السِّياطُ عَجَـــزْنَ عَنْ إنْطَاقِهِ *** فالكَيُّ بالنِّيرانِ خَيْرُ ضَمِيـــنِ !

قُل للعَواذلِ : إنْ رَمَيْتُم مِصْرَنَا *** بتَخَلُّفِ التَّصْنِيعِ والتَّعْدينِ

مِصْرُ الحَديثَةُ قَد عَلَتْ وتَقَدَّمَتْ *** في صَنْعَةِ التَّعْذيبِ والتَّقْرينِ !

وتَفَنَّنَتْ – كَي لا يَمَلَّ مُعَذَّبٌ *** في العَرْضِ والإخْراجِ والتَّلْوينِ !

أتُرَىٰ أولئكَ يَنْتَمُون لآدمٍ *** أمْ هُم مَلاعِينُ بَنُو مَلْعُونِ؟

لا تَحْسَبُوهُم مُسْلِمينَ مِن اسْمِهِم *** لا دِينَ فِيهِم غيرُ سَبِّ الدِّينِ

لا دِينٌ يَرْدَعُ لا ضَمِيرٌ مُحَاسِبٌ *** لا خَوفُ شَعْبٍ لا حِمَىٰ قَانُونِ

مَنْ ظَنَّ قَانوناً هُناكَ فإنَّما *** قانونُهم هُو حَمْزَةُ البَسْيُوني

أحْداثُ عَهْدِ عِصَابَةٍ حَكَمُوا *** بَنِي مِصْرَ بلا خُلُقٍ ولا قانُونِ

أنْسَتْ مَظَالِمُهُمْ مَظالِمَ مَنْ خَلَوْا *** حَتَّىٰ تَرَحَّمَنا عَلَىٰ نَيْرُونِ

حَسِبُوا الزَّمَانَ أصَمَّ أعْمَىٰ عَنْهُمُ *** قَدْ نَوَّمُوهُ بخُطْبَةٍ وطَنِينِ

وكَفَىٰ بِرَبِّكَ للخَليقَةِ مُحْصِياً *** في لَوْحِهِ وكِتَابِهِ المَكْنُونِ

رَوَىٰ الإمامُ أحْمَدُ (٣/ ٤٩٥) والبخاريُّ في " الأدب المُفْرَد " (٩٧٠) وابن أبي عاصمٍ في " السُّنَّة " (٥١٤) وفي " الآحَادِ والمَثاني " (٢٠٣٤) والحاكم في " المُسْتَدْرك " (٢/ ٤٣٧) والطَّبراني في " مسند الشَّاميين " (١٥٦) والحارث بن أبي أسامة في " مُسْنَدِه " (٤٤ – البغية) وغَيْرُهُم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ أُنَيْسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم – يَقُولُ : " يُحْشَرُ النَّاسُ يَومَ القِيامَةِ – حُفاةً عُراةً غُرْلاً بُهْماً – أيْ : لَيْسَ مَعَهُم شَيءٌ – ثُمَّ يُنَاديهم بصَوتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كما يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ : أنا المَلِكُ ، أنا الدَّيَّانُ ، لا يَنْبَغِي لأحَدٍ من أهْلِ النَّارِ أنْ يَدْخُلَ النَّارَ ولأحَدٍ من أهْلِ الجَنَّةِ عنده مَظْلَمَةٌ حَتَّىٰ أقْتَصَّ له منه حَتَّىٰ اللَّطْمَةُ ، ولا ينبَغِي لأحَدٍ من أهْلِ الجَنَّةِ أنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ ولأحَدٍ من أهْل النَّارِ عِنْدَهُ مَظْلَمةٌ حَتَّىٰ أقْتَصَّ له مِنْهُ حَتَّىٰ اللَّطْمَةُ " قالُوا : كَيْفَ ذلكَ يا رسُولَ اللَّهِ وإنَّما نأتِي اللَّهَ – عَزَّ وجَلَّ – يَومَ القِيامةِ حُفاةً عُراةً غُرْلاً بُهْماً – أيْ : مَفالِيسُ من مَتَاعِ الدُّنْيا وأمْلاكِها – قال : " بالحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ " زادَ الحاكمُ في روايَتِهِ : ثُمَّ قَرَأَ رسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيه وسلَّم – قَولَهُ – تَعَالَىٰ – : { الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [غافر/ ١٧]

وَالْـوَزْنُ بِـالْقِسْـطِ فَلَا ظُلْـمَ وَلا ‏ *** ‏ يُؤْخَـذُ عَبْـدٌ بِـسِوَىٰ مَا عَـمِـــلا

فَبَيْـنَ نَـاجٍ رَاجِـــحٍ مِـيـزَانُـــهُ ‏ *** ‏ وَمُـقْــرَفٍ أَوْبَـقَـهُ عُــدْوَانُــــهُ

وَرَوَىٰ ابْـنُ مـاجـه فِي " سُنَنِـهِ " (٢/ ١٣٢٩) وابـنُ حِبَّـانَ في " صحيحِـه " (٥٠٥٨) وأبـو يَـعْـلَىٰ في " مُسْنَدِه " (٢٠٠٣) وصحَّحه الألبـانيُّ في " صحيح الجامع " (٤٥٩٨) وفي " مختصر العُلُو " (٥٩) عَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ الأنصاريِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما – قَالَ : لَمَّا رَجَعَتْ مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ – أيْ : مُهَاجِرةُ الحَبَشَةِ – إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ لهم : « أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ ؟ » قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ : بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ تَحْمِلُ عَلَىٰ رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ ، فَمَرَّتْ بِفَتىً مِنْهُمْ فَجَعَلَ إِحْدَىٰ يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ – سَقَطَتْ – عَلَىٰ رُكْبَتَيْهَا وانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا ،

وأخرجَ الإمامُ البُخاريُّ في " الأدب المفرَدِ " (١٧١) ومُسلم في " صَحِيحِهِ " (١٦٥٩) وأبو داود (٥١٦٠) والتِّرْمِذِيُّ (١٩٤٨) عبد الرَّزَّاق في " المصنَّف " (١٧٩٥٩) أحمد في مُسْنَدِهِ " (٤/ ١٢٠) والطَّبرانيُّ في " الكبير " (١٧/ ٦٨٣و٦٨٤و ٦٨٥و٦٨٦) وغَيْرُهُم عن أبي مَسْعُودٍ البَدْريِّ – رَضِيَ اللَّهُ عنه – قالَ : كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامـًا لِي بالسَّوْطِ فَسَمِعْتُ صَوْتـًا مِنْ خَلْفِي : « اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ » فَلَمْ أَفْهَمِ الصَّوْتَ مِنَ الْغَضَبِ ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي التَفَتُّ فإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وإِذَا هُوَ يَقُولُ : « اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ » قَالَ : فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي ، فَقَالَ : اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ ، أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَىٰ هَذَا الْغُلَامِ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَهُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللَّهِ !

فَقَالَ : « أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ » أَوْ « لَلَفَحَتْكَ النَّارُ »

قَالَ : فَحَلَفْتُ أَلَّا أَضْرِبَ مَمْلُوكـًا بَعْدَهُ أَبَداً .

وَيُجْمَعُ الْخَلْقُ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ‏ *** ‏ جَمِيعُــــــــهُمْ عُلْوِيُّهُمْ وَالسُّفْلِي

فِي مَوْقِفٍ يَجِلُّ فِيهِ الْخَطْبُ ‏ *** ‏ وَيَعْظُمُ الْهَــــــوْلُ بِهِ وَالْكَــرْبُ

وَأُحْضِرُوا لِلْعَرْضِ وَالْحِسَابِ ‏ *** ‏ وَانْقَطَعَتْ عَلَائِـــــقُ الْأَنْسَــابِ

وَارْتَكَمَتْ سَحائِبُ الْأَهْــوَالِ ‏ *** ‏ وَانْعَجَمَ الْبَلِيغُ فِي الْمَــــقَــالِ

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْقَيُّـــــــومِ *** وَاقْتُصَّ مِنْ ذِي الظُّلْمِ لِلْمَظْلُـــومِ

وَسَاوَتِ الْمُلُوكُ لِلأَجْنَـــادِ *** وَجِيءَ بِالْكِتَابِ وَالأَشْهَـــادِ

وَشَهِدَ الأَعْضَـاءُ وَالْجَـوَارِحْ *** وَبَدَتِ السَّـوْءَاتُ وَالْفَضَـائِحْ

وَابْتُلِيَتْ هُنَالِكَ السَّـرَائِـرْ *** وَانْكَشَفَ الْمَخْفِيُّ فِي الضَّمَائِرْ

وَنُشِرَتْ صَحَائِفُ الأَعْمَـالِ *** تُؤْخَذُ بِالْيَمِينِ وَالشِّمَـــالِ

طُوبَىٰ لِمَنْ يَأْخُذُ بِالْيَمِيـنِ *** كِتَابَهُ بُشْرَىٰ بِحُورٍ عِيـــنِ

وَالْوَيْلُ لِلآخِذِ بِالشِّمَـالِ *** وَرَاءَ ظَهْرٍ لِلْجَحِيمِ صَـالِي

{وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ }هود١١٧

{ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ }الأنعام١٣١

تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٩/ ٥٦٣)

يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ} [الأنعام: ١٣١] : أَيْ إِنَّمَا أَرْسَلْنَا الرُّسُلَ يَا مُحَمَّدُ إِلَىٰ مَنْ وَصَفْتُ أَمْرَهُ، وَأَعْلَمْتُكَ خَبَرَهُ مِنْ مُشْرِكِي الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يَقُصُّونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَهُمْ لِقَاءَ مَعَادِهِمْ إِلَيَّ، مِنْ أَجْلِ أَنَّ رَبَّكَ لَمْ يَكُنْ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ. وَقَدْ يَتَّجِهُ مِنَ التَّأْوِيلِ فِي قَوْلِهِ: (بِظُلْمٍ) وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ} [الأنعام: ١٣١] : أَيْ بِشِرْكِ مَنْ أَشْرَكَ، وَكُفْرِ مَنْ كَفَرَ مِنْ أَهْلِهَا، كَمَا قَالَ لُقْمَانُ: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣] . {وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} [الأنعام: ١٣١] يَقُولُ: لَمْ يَكُنْ يُعَاجِلُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ حَتَّىٰ يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ رُسُلًا تُنَبِّهُهُمْ عَلَىٰ حُجَجِ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَتُنْذِرُهُمْ عَذَابَ اللهِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ بِالَّذِي يَأْخُذُهُمْ غَفْلَةً فَيَقُولُوا: مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ. وَالْآخَرُ: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ} [الأنعام: ١٣١] يَقُولُ: لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكَهُمْ دُونَ التَّنْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ بِالرُّسُلِ وَالْآيَاتِ وَالْعِبَرِ، فَيَظْلِمَهُمْ بِذَلِكَ، وَاللهُ غَيْرُ ظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ. وَأَوْلَىٰ الْقَوْلَيْنِ بِالصَّوَابِ عِنْدِي الْقَوْلُ الْأَوَّلُ، أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: أَنْ لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكَهُمْ بِشِرْكِهِمْ دُونَ إِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ وَالْإِعْذَارِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ} [الأنعام: ١٣١] عُقَيْبُ قَوْلِهِ: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي} [الأنعام: ١٣٠] ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ الدَّلِيلُ الْوَاضِحُ عَلَىٰ أَنَّ نَصَّ قَوْلِهِ: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ} [الأنعام: ١٣١] إِنَّمَا هُوَ إِنَّمَا فَعَلْنَا

تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٢/ ٦٣١)

الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود: ١١٧] يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: وَمَا كَانَ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ الَّتِي أَهْلَكَهَا، الَّتِي قَصَّ عَلَيْكَ نَبَأَهَا، ظُلْمًا وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ، غَيْرُ مُسِيئِينَ، فَيَكُونُ إِهْلَاكُهُ إِيَّاهُمْ مَعَ إِصْلَاحِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ رَبَّهُمْ ظُلْمًا، وَلَكِنَّهُ أَهْلَكَهَا بِكُفْرِ أَهْلِهَا بِاللهِ، وَتَمَادِيهِمْ فِي غَيِّهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ وَرُكُوبِهِمُ السَّيِّئَاتِ. [ص:٦٣٢] وَقَدْ قِيلَ: مَعْنَىٰ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكَهُمْ بِشِرْكِهِمْ بِاللهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ «بِظُلْمٍ» ، يَعْنِي: بِشِرْكٍ، وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ لَا يَتَظَالَمُونَ، وَلَكِنَّهُمْ يَتَعَاطَوْنَ الْحَقَّ بَيْنَهُمْ، وَإِنْ كَانُوا مُشْرِكِينَ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ إِذَا تَظَالَمُوا

تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ٣٤١)

{وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) }

يَقُولُ تَعَالَىٰ: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} أَيْ: إِنَّمَا أَعْذَرْنَا إِلَىٰ الثَّقَلَيْنِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ، لِئَلَّا يُعَاقَبَ أَحَدٌ بِظُلْمِهِ، وَهُوَ لَمْ تَبْلُغْهُ دَعْوَةٌ، وَلَكِنْ أَعْذَرْنَا إِلَىٰ الْأُمَمِ، وَمَا عَذَّبْنَا أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ إِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ} [فَاطِرَ: ٢٤] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النَّحْلِ: ٣٦] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولا} [الْإِسْرَاءِ: ١٥] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا} [الْمُلْكِ: ٨، ٩] وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ: وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: {بِظُلْمٍ} وَجْهَيْنِ:

أَحَدَهُمَا: ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ رَبَّكَ مُهْلِكُ الْقُرَىٰ بِظُلْمِ أَهْلِهَا بِالشِّرْكِ وَنَحْوِهِ، وَهُمْ غَافِلُونَ، يَقُولُ: لَمْ يَكُنْ يُعَاجِلُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ حَتَّىٰ يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ مَنْ (١) يُنَبِّهُهُمْ عَلَىٰ حُجَجِ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَيُنْذِرُهُمْ عَذَابَ اللهِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ بِالَّذِي يُؤَاخِذُهُمْ غَفْلَةً فَيَقُولُوا: {مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ} [الْمَائِدَةِ: ١٩] .

وَالْوَجْهَ الثَّانِيَ: أَنَّ {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ} يَقُولُ: لم يكن [ربك] ليهلكهم دُونَ التَّنْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ بِالرُّسُلِ وَالْآيَاتِ وَالْعِبَرِ، فَيَظْلِمَهُمْ بِذَلِكَ، وَاللهُ غَيْرُ ظَلَّامٍ لِعَبِيدِهِ.

ثُمَّ شَرَعَ يُرَجِّحُ الْوَجْهَ الْأَوَّلَ، وَلا شَكَّ أَنَّهُ أَقْوَىٰ، وَاللهُ أَعْلَمُ . اهـ

وفي باب أنَ الله لا يغفر الشرك، عن ابن مسعود، سلف برقم (٣٥٥٢) .

وعن أبي ذر، سيرد ٦/ ٤٤٧ .

وعن معاذ بن جبل، سيرد ٦/ ٤٥٠ .

وفي باب القصاص في مظالم الناس يوم القيامة عن أبي هريرة مرفوعـًا: "من كانت عنده مظلِمة في مالٍ أو عرض، فليأته فليستحلها منه ... " سلف برقم (٩٦١٥) بسند صحيح.

وعنه أيضـًا مرفوعـًا: "هل تدرون من المفلس؟ " قالوا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع. قال:" إن المفلس من أمتي مَن يأتي يوم القيامة بصيام وصلاة وزكاة، ويأتي وقد شتم عرض هذا، وقذف هذا، واكل مال هذا، " ... سلف برقم (٨٠٢٩) وإسناده صحيح.

قال السندي: قوله: "الدَّواوين عند الله عز وجل ثلاثة" أي : أنـواعُ الـذُّنُـوبِ الـمُـدَوَّنَـةِ عـلـىٰ الـعِـبـادِ .

{وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }لقمان١٣

ورأينا في عَصْرنا الحاضرِ من أفْعَالِ وأخبار الظَّلَمَةِ المُفْتَرينَ والجَبابرةِ المُتَكَبِّرينَ ، ومن ذلك : حَمزة البَسْيونيُّ رئيس السِّجْنِ الحَرْبِيِّ في أيَّامِ عَبْد النَّاصِرِ ، وكانَ طاغيةً مُجْرِمًا ، كم قَتَلَ من المُؤمِنينَ ، وكم أذلَّ مِن الأحرار المُتَّقينَ ، وكم أذاقَهم مُرَّ العَذابِ في السِّجْنِ الحَربيِّ ، واخترعوا ألوانًا من العذابِ ما سَمِعنا بها في قديمٍ أو حديثٍ إلَّا عَلَىٰ أيْديهم* :

هذا هُو الحَربيُّ مَعْقِلُ ثَوْرةٍ *** تَدْعُو إلىٰ التَّحريرِ والتَّحْسيـــــنِ

فيه زبانيَـــــةٌ أُعِدُّوا لِلْأذَىٰ *** وتَخَصَّصُوا في فَنِّهِ المَلْـــعُـــونِ

مُتَبَلِّدون عُقُولُهُم بِأَكُفِّهِمْ *** وَأَكُفُّهُم للشَّـــــرِّ ذاتُ حَنِيـــنِ

يَتَلَقَّفون القَادميــن كأنَّهم *** عَثَـــروا عَلَىٰ كَنْزٍ لَدَيْكَ ثَمِيـــنِ

بالرِّجْلِ بالكُرْبَاجِ باليَدِ بالعَصَا *** وبكُلِّ أُسْلُوبٍ خَسِيسٍ دُونِ

لا يُقَدِّرونَ مُفَكِّراً ولو أنَّـــه *** في عَقْلِ سُقْراطَ وأفْلاطُــــــونِ

لا يَعْبَأون بصَالِحٍ ولو أنَّـــه *** في زُهْدِ عِيسىٰ أو تُقَىٰ هَـــارونِ

لا يَرحَمُونَ الشَّيْخَ وهو مُحَطَّمٌ *** والظَّهْرُ مِنْه تَراه كالعُرجُونِ

لا يُشْفِقُون عَلَىٰ المَريضِ وطَالَما *** زادوا أذاهُ بقسوةٍ وجُنُـــونِ

---

* في حِين أنَّهم يَتَلَقَّونَ الهزائمَ تَتْرَىٰ عَلَىٰ أيْدِي أعْدائنا من الصَّهاينةِ ومن والاهم ولا يُحَرِّكُونَ ساكنًا ، ولا تَظْهَرُ نَخْوَتُهم وبَطْشُهُم وقُوَّتُهم إلَّا عَلَىٰ أهْلِ دِينهم ومِلَّتِهم إنْ كانَ بَقِيَ في نُفُوسِهِم شيءٌ من هذا الدِّينِ والمِلَّةِ !

ولو أنَّهم وجَّهوا عُشْرَ هذا الغِلِّ والقُوَّةِ إلَىٰ عَدُوِّنا لأحْرَزوا انْتصاراً كبيراً ، ولكنَّ الأمرَ كما قيل :

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَــامَةٌ *** فَتَخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّـــافِرِ

هَلَّا بَرَزْتَ إِلَىٰ غَزَالَةَ فِي الْوَغَىٰ *** بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحَيْ طَائِرِ

وَأصْلُ ذلك أنَّ الحجَّاجَ بنَ يُوسُفَ كانَ جَبَّاراً شديدَ البَطْشِ بالمُسْلمينَ - كما مَرَّ قريبًا - ثُمَّ إنَّه قاتلَ شبيبَ بنَ يزيدَ الخارجيَّ وكانَ قويًّا فتَّاكًا يُضْرَبُ به المَثَلُ في القُوَّةِ والشَّجاعةِ ،

وكانت امرأتُهُ غَزالةَ مثْلَهُ في الجُرأةِ والشَّجَاعةِ والإقْدامِ ، فهَرَبَ من أمامِها الحَجَّاجُ بنُ يُوسُفَ هذا خَوْفًا منها ، فَعَيَّرَهُ بَعْضُ النَّاسِ بِذلك .

كَم عَالِمٍ ذِي هَيْبَةٍ وعِمَـــامَةٍ *** وَطِئوا عِمامَتَهُ بكُلِّ مُجُـــونِ

لَوْ لَم تَكُنْ بَيْضَاءَ ما عَبَثُوا بها *** لَكِنَّها هَانَتْ هَـــوانَ الدِّيـــنِ

وكَبِيرِ قَومٍ زيَّنَتْهُ لِحْيَـــةٌ *** أغْرَتْهُمُ بالسَّبِّ والتَّلْعِيـــنِ

قَالُوا له : " انْتِفْها " بكُلِ وَقَاحَةٍ *** لم يَعْبَأوا بسِنِينِهِ السِّتِّيـــنِ

فإذا تَقَاعَسَ أو أبَىٰ يا وَيْلَـــه *** مِمَّا يُلاقِي مِن أذىً وفُتُـــونِ

أتُرَىٰ أولئكَ يَنْتَمُـــون لآدمٍ *** أمْ هُم مَـلاعِينُ بَنُو مَلْعُـــونِ؟

لا تَحْسَبُوهُم مُسْلِمينَ مِن اسْمِهِم *** لا دِينَ فِيهِم غيرُ سَبِّ الدِّينِ

لا دِينٌ يَرْدَعُ لا ضَمِيرٌ مُحَاسِـبٌ *** لا خَوفُ شَعْبٍ لا حِمَىٰ قَانُـونِ

مَنْ ظَنَّ قَانونًا هُناكَ فإنَّمـــا *** قانونُهم هُو حَمْزةُ البَسْيُـــوني

هَذا هُو الحَرْبِيُّ مَعْقِلُ ثَورةٍ *** تَدْعُو إلىٰ التَّحْريرِ والتَّحْسِينِ !

هُو صُورةٌ صُغْرَىٰ اسْتُعِيرَتْ مِن لَظَىٰ *** في ضِيقِها وعَذابِها المَلْعُونِ

هُو مَصْنَعٌ للهَوْلِ كَم أهْدَىٰ لَنا *** صُوَرًا تُذَكِّرُنا بِيَومِ الدِّينِ !

هو فِتْنَةٌ في الدِّينِ لولا نَفْحَةٌ *** مِنْ فَيْضِ إيمانٍ وبَرْدِ يَقِينِ

هذا الصَّنَمُ – حَمزةُ البَسْيوني – وزبانيتُهُ اضْطَهَدُوا كُلَّ مَنْ حَاولَ أو شَكُّوا أنَّه يَنْوِي أنْ يَتَبَنَّىٰ أيَّ مَسْألةٍ تُمُتُّ للدِّينِ بصِلَةٍ ، أو يمارسُ شيئًا من شعائر الإسلامِ بانتظامٍ ولو كانت الصَّلاة ، وجَفَّفُوا منابعَ الدِّينِ واعْتَقَلُوا رُمُوزَهُ ومَنْ يَحْمِلُ هَمَّهُ وقَضِيَّتَهُ ، وأعْدَمُوا كثيراً مِنْهم ، ولا ذنْبَ لهؤلاءِ المُسْتَضْعَفِينَ ولا تُهمةَ لهؤلاءِ المُعَذَّبين إلَّا أنَّهم يقُولونَ : ربُّنَا اللهُ * !

كُلُّ ذنْبِهِم أنَّ أيَاديَهم مُتَوضِّئةٌ وطَاهرةٌ ولا تُرْفَعُ إلَّا إلَىٰ اللَّهِ – تَعَالَىٰ – !

كُلُّ جَريمتِهم أنَّ وجوهَهُم راكِعةٌ وساجدةٌ ولا تَنْحَنِي ولا تَخْضَعُ إلَّا لخالِقِها العَظِيمِ ومَعْبُودِها الكريمِ – سُبْحَانَهُ وبحَمْدِهِ – .

* كما قال – تَعَالَىٰ – في بعضِ الظَّلَمةِ السَّابقينَ لَمَّا عَذَّبُوا المُؤمنينَ وأحْرَقُوهُم بالنَّارِ : { وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [البُروج/ ٨] ، وقالَ – تَعَالَىٰ – في كَفَرةِ قومِ لوطٍ لمَّا اضْطَهَدوا المُؤمنينَ وأرادوا تَشْريدَهُم في الأرضِ : { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } [النَّمْل/ ٥٦] ونَحْوُها في [الأعْراف/ ٨٢] وذاتَ مَرَّةٍ لَمَّا اشْتَدَّ تَعْذيبُ ها المُجْرمِ لبعْضِ المُعْتَقَلِينَ خَوَّفَهُ ذلكَ الرَّجُلُ باللَّهِ – تَعالَىٰ – ولِقَائِهِ ، وأنَّهُ لَنْ يُخَلَّدَ في الأرضِ بَعْدَهُ ، بل سيموتُ كما ماتَ أمثالُهُ مِن الجَبابرةِ والظَّلَمَةِ ، وسَيَقِفُ هو مع كلِّ الذينَ اضطَهَدَهُم وعذَّبَهم بَينَ يَدَيِ المَلِكِ الحَقِّ ، واللَّهُ – تَعَالَىٰ – ليْسَ بيْنَهُ وبَيْنَ أحَدٍ من خَلْقِهِ عَلاقةٌ ولا نَسَبٌ لِيُجامِلَ بعضَهُم عَلَىٰ حِسابِ بعْضٍ ، وقد حَلَفَ بنفْسِهِ المُقَدَّسَةِ ألَّا يُجَاوزَ جِسرَ جَهَنَّمَ ظالمٌ ، وألَّا يَدْخُلَ الجَنَّةَ أحَدٌ وعَلَيْهِ مَظْلَمةٌ !

فَلَمَّا قالَ له ذلكَ المَظْلُومُ هذا الكلامَ أخَذتْهُ العِزَّةُ بالإثمِ وقال : هاتِ لي ربَّكَ الذي تَدْعُوهُ وأنا أقَيِّدُهُ بالحديدِ هنا بجانِبِكَ وأضَعُهُ في الزِّنْزانةِ ! نَعوذُ باللهِ وباللَّهِ نَعوذُ من هذا الكُفْرِ والزَّندقةِ ، والظُلْمِ والإلْحادِ ، يا أرضُ ابْلَعِي فكم عَلَىٰ ظَهْرِكِ مِن الجبابرةِ المُفْترينَ والفَراعِنَةِ المُلْحِدينَ .

فأمْهَلَه اللَّهُ – تَعالَىٰ – عِدَّةَ أسابيعَ لَعَلَّهُ أنْ يَرْجِعَ عَنْ كُفْرِهِ أو يَخْرُجَ مِنْ ذنْبِهِ ويتوبَ إلىٰ ربِّهِ من هذا الكفرِ العُرْيانِ الذي لا يَسْتُرُهُ شئٌ والإلحادِ الواضحِ الذي لا يُغَطِّي عَلَيْهِ شئٌ . فلمَّا لمْ يَتُبْ أخَذه اللهُ ، وبيْنما هو يسيرُ بسيَّارتِهِ في طَريقِ القاهرة الإسْكندرية إذ اصْطَدَمَتْ سيَّارتُهُ بسَيَّارةٍ مُحَمَّلةٍ بأسْياخِ الحديدِ ، فدخَلَتْ أسْياخُ الحديدِ في كُلِّ مَوضِعٍ من بَدَنِهِ : في وجْهِهِ وعُنُقِهِ وصدره وبطْنِهِ ، وظلَّ ينْخَرُ مثلَ العِجلِ ولم يسْتَطِعْ النَّاسُ أنْ يَفْعَلُوا له شيْئًا ، إنْ أخْرَجُوا الحديدَ من بدنهِ ماتَ ، وإنْ تَرَكُوهُ ماتَ ، فتركوهُ حَتَّىٰ صُفِّيَ دَمُهُ ، وراحَ ، ورجعَ إلىٰ ربِّهِ الذي كَفَرَ بهِ وتَحَدَّاهُ في الدُّنْيا ! { ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ } [الأنعام/ ٦٢]

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } [يونُس/ ٢٣]

❊

روضة المحدثين (٣/ ٤٠٨، بترقيم الشاملة آليا)

١١٨٣ – عن ابن عباس قال: كان موسىٰ يقول لبنىٰ إسرائيل: إن الله يأمركم بكذا حتىٰ دخل عليهم فى أموالهم فشق ذلك علىٰ قارون فقال لبنىٰ إسرائيل: إن موسىٰ يقول من زنىٰ رجم فتعالوا نجعل لبغىٰ شيئا حتىٰ تقول أن موسىٰ فعل بها فيرجم فنستريح منه ! ففعلوا ذلك ، فلما خطبهم موسىٰ قالوا له : وإن كنتَ أنتَ قال: وإن كنتُ أنا فقالوا: فقد زنيت فجزع، فأرسلوا إلىٰ المرأة فلما جاءت عظم عليها موسىٰ، وسألها بالذىٰ فلق البحر لبنىٰ إسرائيل إلا صدقت فأقرت بالحق فخر موسىٰ ساجدا يبكىٰ فأوحىٰ الله إليه إنىٰ أمرت الأرض أن تطيعك فأمرها بما شئت فأمرها فخسفت بقارون ومن معه.

** ابن أبىٰ حاتم

(فتح الباري ٦/٤٤٨)

** إسناده صحيح

قَوْلُهُ : " كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو : فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أو مُوبِقُهَا " : فَجَعَلَ الإنْسانَ سِلْعَةً في سُوقِ الحياةِ .